

# الكتب المنزلة

## عناصر الموضوع

١١٨	مفهوم الكتب المنزلة
١١٩	الألفاظ ذات الصلة
١٢١	الحكمة من إنزال الكتب
١٢٤	الكتب المنزلة وخصائصها
١٤٣	الكتب المنزلة والموقف منها
١٥٤	القرآن الكريم والكتب المنزلة قبله

## مفهوم الكتب المنزلة

أولاً: المعنى اللغوي.

الكتب المنزلة: مركب من موصوف (الكتب) وصفة (المنزلة).  
الكتب لغة: الكتب جمع كتاب، وهو من الفعل كتب، وأصل معناه: الضم والجمع، قال الراغب بعد أن بين كون أصل الكلمة من ضم الشيء للشيء: «والكتاب في الأصل مصدر، ثم سمي المكتوب فيه كتاباً، والكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه»<sup>(١)</sup>.  
وقال النحاس: «وقيل كتاب لما جمع فيه. يقال: كتبت الشيء أي: جمعته»<sup>(٢)</sup>.  
كما تدل مادة «كتب»: على الفرض والإيجاب والتقدير، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

المنزلة لغة: المنزلة اسم مفعول من الفعل نزل، فعل، مفعلة، والمنزلة: اسم مفعول من أنزل، أفعل، مفعلة. نزل بالمكان، «ونزله نزلةً واحدة، ونزل من علو إلى أسفل، ونزل في البشر، ونزل عن الدابة. وهذا منزل القوم. واستنزلوهم من صياصبيهم، وأنزل الله الغيث، وأنزل الكتاب ونزله، وتنزلت الملائكة»<sup>(٣)</sup> والنزول في الأصل: انحطاط من علو. يقال: نزل عن دابته، ونزل في مكان كذا: حط رحله فيه، وأنزله غيره. قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

«ونزل بكذا، وأنزله بمعنى، وإنزال الله تعالى نعمه ونقمه على الخلق: إعطاؤهم إياها، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن، وإما بإنزال أسبابه والهداية إليه، كإنزال الحديد واللباس، ونحو ذلك»<sup>(٤)</sup>.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي

الكتب المنزلة هي الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه لهداية الناس. فتشمل ما أخبرنا الله عنه: صحف إبراهيم، والتوراة والزبور والإنجيل، وكذلك القرآن الكريم، إضافة إلى ما أنزله الله ولم يقص علينا خبره.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٩٩

(٢) معاني القرآن، النحاس ٧٩ / ١.

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣٩ / ٥، المفردات، الراغب ص ٧٩٩.

(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣٩ / ٥.

## الألفاظ ذات الصلة

### ١ القرآن:

القرآن لغة:

القاف والراء والياء أصل صحيح يدل على الشيء المجموع، وقرأت الشيء قرأتًا: جمعته، وضممت بعضه على بعض، وقرأت الكتاب قراءةً وقرأتًا، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها<sup>(١)</sup>.

القرآن اصطلاحًا:

كلام الله تعالى، المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر، المقروء في المصاحف، المبدوء بسورة الفاتحة والمنتهي بسورة الناس<sup>(٢)</sup>.

الصلة بين القرآن والكتب المنزلة:

القرآن الكريم آخر الكتب المنزلة من الله عز وجل إلى أنبيائه لهداية الناس.

### ٢ التوراة:

التوراة لغة:

قال أبو حيان: «التوراة: اسمٌ عبرانيٌّ، وقد تكلف النحاة في اشتقاقها، وفي وزنها، وذلك بعد تقرير النحاة أن الأسماء الأعجمية لا يدخلها اشتقاقٌ، وأنها لا توزن، يعنون اشتقاقًا عربيًا»<sup>(٣)</sup>.

التوراة اصطلاحًا:

«التوراة اسمٌ للكتاب المنزل على موسى عليه السلام»<sup>(٤)</sup>.

الصلة بين التوراة والكتب المنزلة:

التوراة هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/٦٤، مجمل اللغة، ابن فارس ١/٧٥٠.

(٢) انظر: التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، صالح الفوزان ص ٦٦.

(٣) البحر المحيط ٣/٥.

(٤) المصدر السابق.



يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿٢٥٧﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قاله تعالى يتولى عباده المؤمنين ويخرجهم من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وأنبأ الله تعالى جاءوا بالحجج النيرات والآيات الواضحات مؤيدين بالكتب التي تنير الطريق لهم ولمن اتبعهم.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وبين تعالى أن غاية رسالة موسى عليه السلام إخراج قومه من ظلمات الكفر والجهل والظلم إلى نور الإيمان والعلم والعدل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

قال الماتريدي: «وعلى ذلك بعث جميع الرسل والأنبياء، بعثوا ليخرجوا قومهم من الظلمات إلى النور»<sup>(١)</sup>.

إن وظيفة الرسل وغاية إنزال الكتب إخراج الناس من الظلمات التي تغشاهم

## الحكمة من إنزال الكتب

لا يمكن للبشرية في مسيرتها أن تحتكم لعقولها القاصرة ولا لأهوائها الجامحة المتبينة ولا لتجاربها المحدودة، ولا للحدس أو التخمين، أو غير ذلك من وسائل المعرفة والإدراك أو الظنون والأوهام أو الخرافات والأساطير، فمع أهمية العقل وضرورة الحواس وقيمة التجارب الإنسانية لكن ذلك لا يكفي ولا يشفي، إذ لا غنى للبشرية عن هداية السماء، ولا رشاد لهم إلا بدعوة الأنبياء، من هنا ندرك قيمة الكتب الإلهية المنزلة وأهميتها ومقاصدها، فلقد نزلت هداية ورحمة، ونورا وحكمة، وبيانا وتفصيلا، نزلت لإخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والعلم، نزلت هداية للبشرية وتبيانا، ومنهاجا ونبراسا لها في طريقها، نزلت بالأخبار والبشارات، للعتة والاعتبار، والترغيب والترهيب، وقد بين القرآن ذلك كله أصدق بيان وأجلى برهان.

**أولاً: إخراج الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد:**

الحكمة من إنزال الكتب هداية الناس وتبصيرهم، وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَرَى الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/٣٦٣.

عاش حياته متخبطا في الظلمات ﴿وَمَنْ لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].  
قال ابن القيم: «الظلمات: جمع ظلمة، وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة ظلم النفس بالتقليد واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم. والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: التفريق بين الحق والباطل وإقامة العدل في حياة الناس:

من مقاصد إنزال الكتب إحقاق الحق وإبطال الباطل، فالكتب هي الفارقة بين الحق والباطل، والكتب هي الداعية إلى إقامة موازين العدل بين الناس.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكُتُبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَيَلْعَلُمَ اللَّهُ مِنْ بَصُرِهِ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

عن مجاهد، وقتادة: «الميزان هو العدل»<sup>(٢)</sup>.

وقال القشيري: «أي: أرسلناهم مؤيدين بالحجج اللائحة والبراهين الواضحة،

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤٠٠.

(٢) تفسير مجاهد ص ٥٨٩.

وتحيط بهم إلى النور الذي يضيء لهم دروبهم ويهديهم سبلهم. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين لنا أن أعظم مقاصد القرآن إخراج الناس من الظلمات المدلهمة إلى النور السافر.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَيْنَ مِنْ سَمَاءٍ آيَاتٍ يَبْسُتَ بِهَا مَنَافِعُ لَكُمْ مِنَ الْخَلْقِ وَالْأَنْعَامِ وَالنَّارِ وَالْحَدِيدِ﴾ [الحديد: ٩].  
﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبْسُوتَةً لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١١].

﴿الرَّ كُتُبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

ألا ما أحوج الإنسانية لهذا النور الذي يضيء لهم دروب حياتهم المتشعبة، ويصبرهم حين يمشون بين الناس، ويكشف لهم ظلام الشك والشهوات.

قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِسًّا فَأَجَبْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فلا يستغني الناس عن النور الذي يضيء لهم سبلهم، ومن حرم من النور الرباني

وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ  
وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ  
شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ [آل عمران:  
٣ - ٤].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ  
لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

فالفرقان: «ما يفرق بين الحق والباطل،  
وبين المشتبه والواضح، وبين ما يؤتى  
ويتقى، وبين ما عليهم ولهم» (٣).

ثالثاً: بيان تكاليف العباد من العبادات  
والمعاملات وغيرها:

خلق الإنسان لعبادة ربه جل وعلا قال  
تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ  
﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولم تترك عبادة الله تعالى لاجتهادات  
الناس وأفكارهم، وإلا لذهب الناس فيها  
كل مذهب، وصارت لهم فيها فنون؛ بل  
كانت العبادات وفق ما جاء به الرسل ونزلت  
به الكتب قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ  
أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ  
فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ  
الضَّلَالَةُ فَسَبُّوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ  
كَانَ عِقَابَ الْمُكذِّبِينَ ﴿٣﴾﴾ [النحل:  
٣٦].

فأرسل الله رسله كما أنزل كتبه لأسمى

وأزحنا العلة لمن أراد سلوك الحجة المثلى،  
ويسرنا السبيل على من آثر اتباع الهدى  
والدليل، وأنزلنا معهم الكتب المنزلة،  
والميزان أي: الحكم بالقرآن، واعتبار العدل  
والتسوية بين الناس» (١).

وقال السعدي: «الميزان: العدل والاعتبار  
بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل  
الدلائل العقلية من الآيات الأفاقية والنفسية  
والاعتبارات الشرعية والمناسبات والعلل  
والأحكام والحكم داخلة في الميزان الذي  
أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده، ليزنوا  
به ما اشتبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما  
أخبر به وأخبرت رسله» (٢).

فكما أنزل الله الكتاب أنزل الميزان.  
قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ  
وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾  
[الشورى: ١٧].

وسميت التوراة بالفرقان لكونها فارقة  
بين الحق والباطل قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا  
مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾  
[البقرة: ٥٣].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ  
وَضِيحَةً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].  
كذلك سمي القرآن بالفرقان قال تعالى:  
﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٧/ ٣٩٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥٦.

(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٣٥٠.

### الكتب المنزلة وخصائصها

تحدث القرآن الكريم عن الكتب المنزلة حديثا شافيا، وبين ما جاء فيها من الهدى والحق، وتحدث القرآن عن نزولها ومقاصدها، كما بين أوصافها وفضائلها، وتحكيمها والعمل بها، وتصديق القرآن لها وهيمته عليها.

ومن الكتب المنزلة التي تحدث القرآن عنها: التوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن، وصحف إبراهيم وموسى.

أولاً: التوراة:

التوراة: كتاب الله تعالى الذي أنزله على نبيه موسى عليه السلام (٣).

(٣) ذكر الفراء أنها: من وري الزنديري إذا خرجت ناره وأوريته يريد أنها ضياء، وقال أبو إسحق الزجاج: قال البصريون: توراة أصلها فوعلة، وفوعلة كثير في الكلام مثل الحوصلية، وفي تاج العروس: وقد تعقب المحققون كلامهم بأسره وقالوا هو لفظ غير عربي، بل هو عبراني اتفاقاً، وإذا لم يكن عربياً فلا يعرف له أصل من غيره، إلا أن يقال إنهم أجروه بعد التعريب مجرى الكلم العربية وتصرفوا فيه بما تصرفوا فيها، والله أعلم.

انظر: غريب الحديث، ابن قتيبة ١/ ٢٤٥، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ١٩١.

يقول الأستاذة عزيزة دروزة رحمه الله في التفسير الحديث ٢/ ٤٧٨: «والذي يسمى التوراة و يسمى أيضاً باسم العهد القديم هو مجموعة ضخمة من أسفار عديدة منفصل بعضها عن بعض بأسماء متنوعة، و عددها عند فريق من الكتائبيين الطبعة البروتستانتية تسعة وثلاثون،

الغايات وهي عبادته تعالى وتنظيم حياة الناس وإصلاح معاملاتهم. فجميع ما جاء به الأنبياء عليهم السلام خرج من مشكاة واحدة وقصد إلى غاية واحدة هي: هداية البشرية وإمدادها بالزاد الروحي والقبس الإيماني الذي يضيء دروب الحياة، ويصلح المعاش والمعاد.

قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ [الشورى: ١٣].

عن قتادة (شرح لكم من الدين ما وصى به نوحاً) قال: الحلال والحرام (١).

وقال مجاهد: لم يبعث الله تعالى نبيا إلا أوصاه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة. فذلك دينه الذي شرع لهم (٢).

فأصول الدين واحدة، لا تختلف في جميع الشرائع، وأما الفروع فمختلفة.

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥١٣.

(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٣٠٦.

قبل هدى للناس، فالكتب الثلاثة خرجت من مشكاة واحدة؛ ومن ثم فهي متفقة في مصدرها ومقاصدها، ومن هنا ندرك حكمة اقترانها في مواضع كثيرة من القرآن، لأنها يصدق بعضها بعضاً، ويكمل سابقها لاحقها، وهي كلها كلام رب العالمين، فضلاً عن توافقها وتناسبها.

وقد جاء الحديث عن نزول التوراة في مواضع أخرى.

قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

فتحدثت الآية عن تورتين، التوراة المنزلة من عند الله تعالى، والتوراة الموجودة في أيدي اليهود والتي فيها ما فيها من تحريف وزيف، لكنها لا تزال حجة عليهم بما بقي فيها من حقائق تعضد ما جاء به القرآن، وتنقض ما هم عليه من أباطيل. ولو كانت توراة واحدة لناسب ذلك الإضمار تحاشياً للتكرار، لكن الحديث عن تورتين.

قال تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ﴾.

ويأتي الحديث عن التوراة الحقيقية وعن نزولها ومضمونها وثمراتها الطيبة في سورة المائدة.

ولقد تحدث القرآن عنها حديثاً مسهباً، مما يدل على منزلتها، حدثنا القرآن عن نزولها وكتابتها، وعن مقاصدها، وما تضمنته من أوامر وأخبار، ودعانا إلى الإيمان بها وينزلها على موسى عليه السلام، وأنها نزلت بالخير والهدى.

تحدث القرآن عن نزولها في مواضع كثيرة.

قال تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

فكما أنزل الله تعالى القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مصدقاً لما بين يديه، فقد أنزل التوراة والإنجيل من

و عند فريق آخر الطبعة الكاثوليكية ستة وأربعون...».

ويقول في كتابه القرآن والمبشرون ص ١٨-٢١، والذي يرد فيه على كتابات أحد القساوسة: «كلمة التوراة عبرانية تعني التعليم أو الشريعة، وهي معربة، والمتبادر أن التعريب سابق لنزول القرآن، وأن اللفظ القرآني جاء كما كان مستعملاً قبل نزول القرآن... والمقصود القرآني من كلمة التوراة: هو الكتاب المنزل من عند الله على موسى عليه السلام المحتوي للمبادئ والتعليمات والتشريعات والأحكام والحدود الربانية. في حين أن المتداول عند الكتابيين أن التوراة هي: مجموعة ضخمة من الأسفار منفصل بعضها عن بعض، تعرف بالعهد القديم...» بتصرف واختصار..

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّزِينَيُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَسْتُرُوا بِعَآيِنِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ [المائدة: ٤٤].

فالتوراة منزلة من عند الله تعالى بالهدى والنور، وهي شريعة الله تعالى التي حكم بها موسى عليه السلام ومن بعده من الأنبياء عليهم السلام، وعلى نهجهم سار الربانيون والأحبار، فأضاءوا بها دروب الحياة، ونعموا في ظلالها بحلاوة العدل وروح الإنصاف. وفي تكرار الحديث عن إنزالها: توكيداً وتقريراً بأنها نزلت من عند الله تعالى، وبياناً لشرفها وعظمتها، وبياناً لمقاصد نزولها، وهي الهداية والبيان.

أسمائها وأوصافها وفضائلها:

تحدث القرآن عن أسمائها فهي التوراة، والفرقان، والكتاب، والألواح، والصحف.

١. التوراة.

وردت بهذا الاسم في القرآن في ستة عشر موضعاً، وفي هذا ما يدل على تعظيم شأنها، فهي كلام رب العالمين.

٢. الكتاب.

أما التعبير عنها بالكتاب فقد ورد في أكثر من ثلاثين موضعاً لكونها مكتوبة وكونها

جامعة، وفي كل هذه المواضع يقرر السياق أنه كتاب موسى عليه السلام.

٣. صحف موسى.

وردت في موضعين، في سورة النجم والأعلى، وفي هذا كله ما يدل على عظمة التوراة ورفعته وجلال قدرها، ﴿أَمْ لَمْ يَبَيِّنَّا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ [النجم: ٣٦].

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٨ - ١٩].

فهي كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه موسى الكليم، واصطفاه به على سائر الناس في زمانه.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي فخذ ماءً مني فأنتك وكن من الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

أنزلها الله تعالى ضياءً وذكرى للمتمقين الذين يتفجعون بهديها، ويستتيرون بضيائها.

٤. الفرقان.

لأن الله تعالى فرق بها بين الهدى والضلال، والحق والباطل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

٥. الألواح.

وقد وردت في ثلاثة مواضع من سورة الأعراف.

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قوله: (وكتبنا له في الألواح): يريد ألواح التوراة<sup>(٢)</sup>.

مقاصدها:

نزلت التوراة هداية ورحمة، ونورا وحكمة، وضياء وذكر، وتفصيلا وبيان، وتبصرة وفرقان، نزلت بياناً لأركان الإيمان وثمراته، كما نزلت مفصلة للأحكام والآداب، والقصص والأمثال، والوصايا والبشارات.

نزلت هداية لبني إسرائيل، وإصلاحاً لعقيدتهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ آلَا تَتَذَكَّرُونَ مِنْ دُونِ وَكَيْلًا﴾ [الإسراء: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩].

كما نزلت تبصرة لهم ورحمة بهم لعلهم يتفكرون بها، ويتذكرون بأحكامها ومواعظها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٤/٢٠٤٢، رقم ٢٦٥٢.  
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/٢٣٣.

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴿١٤٥﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْيَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ [الأعراف: ١٥٤].

في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن نبينا صلى الله عليه وسلم في محاجة آدم وموسى، وفيه: (فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم فهل وجدت فيها (وعصى آدم ربه فغوى) قال نعم، قال أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فحج آدم موسى)<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى، وذكره بعد حديث ٣٢٢٨، وأخرجه مسلم في صحيحه، واللفظ له،

في الكلام، وأن إيتاء موسى كتابه نعمة من الله عليه ومنة عظيمة. فأخبر جل ثناؤه أنه أنعم بذلك عليه لما سلف له من صالح عمل وحسن طاعة<sup>(١)</sup>.

ومن مقاصد نزولها كما في الآية: دعوتهم للإيمان باليوم الآخر وترسيخه في قلوبهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فاتاه الله التوراة هداية ورحمة وتاماً وتفصيلاً ووفاء لجميع ما يحتاج إليه في شريعته، كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾: «عام في بابه، أي: مفصلاً لكل شيء من أحكام الشريعة كالعبادات والمعاملات»<sup>(٢)</sup>.

﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فالتوراة جامعة للأحكام الشرعية والعقدية. وبين تعالى من مقاصد التوراة: التفرقة بين الحق والضلال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيئَةً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

فالتوراة هي الفرقان، لأنها منهاج للتفرقة بين الهدى والضلال، وهي ضياء وذكرى

فبين تعالى أن التوراة هدى ونور، وشرعة ومنهاج، وأنها بصائر للحق، وميزان له، حكم بها الأنبياء، وقضى بها الربانيون والأخبار، وامتل لها الصالحون، فهي بصائر بما اشتملت عليه من حجج وبيّنات، بصائر بما حوته من حكم وأحكام، بصائر بما اشتملت عليه من مواعظ ورفائق، وقصص وأمثال، وبيّنات ونبوءات، بصائر بما حوته من علوم ومعارف تضيء الطريق وترشد إلى سبل الهدى.

وقال جل وعلا: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

فمن مقاصد التوراة، نزولها تماماً وتفصيلاً، وهدى ورحمة، فهي منهاج تام، وشرعة كاملة، وهداية جامعة، ورحمة عامة، آتاه الله موسى جزاءً لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة، ومثوبة لمن أحسن من قومه؛ فهي من تمام الامتثال على أهل الإحسان، من الأنبياء والصالحين أي: أتممنا فضلنا عليهم بالكتاب.

قال الطبري بعد سرده لأقوال السلف: «وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معناه: ثم آتينا موسى الكتاب تماماً لنعمنا عنده، على الذي أحسن موسى في قيامه بأمرنا ونهينا؛ لأن ذلك أظهر معانيه

(١) جامع البيان ١٢/٣٣٦.  
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/١٨٠.

مضمونها:

جاءت التوراة بالمواعظ والأحكام المفصلة، فهي في عمومها هدى ورحمة وبصائر.

قال جل وعلا ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٤٦] [القصص: ٤٣].

وقال سبحانه في سورة المائدة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَسْتَرُوا بِتَائِبِي نَمْنَا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤] [المائدة: ٤٤].

فاشتملت التوراة على الهداية والبيان، والنور والرحمة، والبصائر والمواعظ. وقد بين القرآن بيانا مفصلا بعضا مما ورد في التوراة من عقائد وأحكام، وقصص وأمثال، وبشارات.

١. العقيدة.

ومن ذلك بيان التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ لِئَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾ [٢] [الإسراء: ٢].

فمن مقاصد ومعاني التوراة الأمر

للمتقين الذين يتفعون بهديها، ويستتيرون بضيائها.

ومن مقاصدها: إمامة الناس للهدى والخير.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧].

فالتوراة شاهد وبرهان وسائق ودليل إلى الإيمان بالقرآن، أنزله الذي أنزل التوراة على موسى إماما للمتقين ومنازة للساثرين ورحمة للمؤمنين.

قال ابن عاشور: «وعبر عن التوراة بـ (كتاب موسى) بطريق الإضافة دون الاسم العلم وهو التوراة لما تؤخذ به الإضافة إلى اسم موسى من التذكير بأنه كتاب أنزل على بشر كما أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم تلميحا إلى مثار نتيجة قياس القرآن على كتاب موسى بالمشابهة في جميع الأحوال»<sup>(١)</sup>.

وتقديم (إماما) على (رحمة)؛ لأن الإمامة بمثابة الوسيلة أو الطريقة إلى الشيء، والرحمة بمثابة الغاية والثمرة، والغاية تقدم على الوسيلة، فالتوراة تقود إلى الرحمة، اقتدى بها الأنبياء والصالحون من بني إسرائيل فنالوا الرحمة.

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢١.

مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشْرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ  
بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة:  
١١١].

## ٢. الأحكام.

إذ جميع الكتب المنزلة متفقة في أصول  
التشريع كالصلاة والصيام والزكاة، وإن  
اختلفت في فروعها وجاءت شريعة القرآن  
مسك الختام وغاية التمام.

تأمل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١١﴾ وَذَكَرَ  
أَسْمَاءَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٢﴾ بَلْ تُؤْمِنُونَ الدُّنْيَا ﴿١٣﴾  
وَالْآخِرَةَ خَيْرَ وَأَبْقَى ﴿١٤﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ  
الْأُولَى ﴿١٥﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٦﴾ [الأعلى:  
١٤ - ١٩].

ففيها بيان اشتمال صحف إبراهيم  
وكذلك صحف موسى أي: الثوراة على  
الترغيب في الزكاة والصلاة والتحذير من  
الافتتان بالدنيا وإيثارها على الآخرة.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة المائدة:  
﴿مِنَ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ  
مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ  
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا  
فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ  
جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ  
بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ [المائدة: ٣٢].

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ  
وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ

بالتوحيد، قال الشنقيطي رحمه الله: «فجعل  
الثوراة هدى لبني إسرائيل مفسر بنهيهم عن  
اتخاذ وكيل من دون الله؛ لأن الإخلاص  
كله في عبادته هو ثمرة الكتب المنزلة على  
الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه» (١).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُبْتَأِ بِمَا فِي صُحُفِ  
مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نُرِزُّ  
وَازْرَأُ وَذَرَأْتُنَّي ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا  
سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ  
يُجْزَىٰ الْجَزَاءَ الْآوَفَ ﴿٤١﴾ وَأَنْ لِّكَ الْمُنْتَهَىٰ  
﴿٤٢﴾ وَأَنَّ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّ هُوَ آمَاتٌ  
وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّ هُوَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ  
نُفُوسٍ إِذَا تُنْفَخَتُ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّ هُوَ  
أَعْفَىٰ وَأَقْفَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ [النجم: ٣٦ - ٤٩].

فقد اشتملت صحف موسى وهي الثوراة  
على أصول الإيمان: الإيمان بالله تعالى  
وباليوم الآخر، فضلاً عن الإيمان بالرسول  
والكتب والملائكة والقدر.  
ومن ذلك وعده تعالى لعباده المؤمنين  
بالجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ  
الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ  
وَيُقْبَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ  
وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ١١/٣

بالرحمة ويرفع الله به الحرج ويضع عنهم  
الأصبار التي أرهقتهم، ويحط الأغلال التي  
أثقلتهم، وكانوا يتواصون ويتعاهدون على  
نصرته ومؤازرته، فلما بعث آمن منهم من  
تجرد للحق وأخلص له، وأعرض من خاب  
وخسر.

٤. ضرب الأمثال.

جاءت الكتب الثلاثة بالأمثال التي تقرب  
المعاني إلى الأذهان وترسخها في النفوس،  
وتصورها في صور حية، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ  
رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ  
بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ  
وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ  
ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيمٌ  
أَخْرَجَ شَطْرَهُمْ فَذَارَهُمْ فَمَا اسْتَغْلَظُوا فَمَا اسْتَوَىٰ عَلَيْهِمْ  
شِقَاؤُهُمْ فَمَا اسْتَقْبَضُوا فَخَطَرَهُمْ أَثَدًا وَعَدَّ اللَّهُ  
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَقْفَرَةً  
وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

فلم يقتصر الحديث في التوراة والإنجيل  
عن أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم، بل  
ورد الحديث كذلك عن أوصاف أصحابه  
ومناقبهم، كما أشارت الآية الكريمة، أن  
الله تعالى ضرب لنبيه صلى الله عليه وسلم  
وصحابته رضوان الله عليهم أروع الأمثلة  
في التوراة والإنجيل، حيث بدأت دعوة  
الإسلام غريبة، ولم تلبث أن قوي عودها  
وانتشر عيبرها وأورقت شجرتها وأينعت

وَالأُدُنُّ بِالْأُدُنِّ وَاللِّسَنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ  
فِيصَاصُ فَمَنْ نَصَّدَفَ بِهِ فهُوَ كَفَّارَةٌ  
لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ [المائدة: ٤٤ - ٤٥].

فكشف الله تعالى لنا عن شيء مما  
تضمنته التوراة، في جانب الأحكام  
الشرعية العادلة التي نزلت لحماية الإنسان  
وحفظ دينه، وروحه، وعقله، وبدنه، وماله،  
وعرضه.

٣. البشارات.

مما تضمنته التوراة كما بين القرآن  
البشارة بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.  
قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ  
الَّذِي جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْغُزَاةَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ  
ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ  
الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فلقد جاءت أوصاف نبينا صلى الله  
عليه وسلم مكتوبة في التوراة والإنجيل  
وعلى إثرها وفي ضوءها آمن من آمن من  
علماء أهل الكتاب، وكان اليهود والنصارى  
يترقبون مجيء هذا النبي الأمي الذي يبعث

ثمارها بجهود الصحابة ومساعيهم.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْنِلُون فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

وعد الله تعالى في كتبه الثلاث المجاهدين الصادقين الذين نالوا شرف الجهاد والاستشهاد بأن لهم الجنة.

### ثانيًا: الزبور:

أنزل الله الزبور على نبيه داود عليه السلام فكان من أعظم النعم وأجلها؛ إذ اشتمل على معاني سامية وأحكام راشدة ومواعظ وبشارات، وقد تحدث القرآن عنه في عدة مواضع بما عرفه لنا، وكشف لنا عن شيء مما ورد فيه.

وأصل كلمة الزبور: في اللغة العربية: من (ز ب ر)، والزبر: الكتابة في الحجر، وقيل: الزبر أي: الزجر، لأن الزبور والزبر: الكتب التي اشتملت على زواجر، أي: مواعظ تزجر عن الباطل، وقيل: هو من الفخامة والعظمة، ومنه زبر الحديد، أي: قطعه الكبيرة، وقيل:

من الإتقان؛ لأنه كتابٌ محكمٌ<sup>(١)</sup>.

وقد وردت بعض مشتقات هذه المادة في القرآن الكريم: فجاءت بمعنى: القطعة من الشيء. قال تعالى: ﴿أَتَوْقِي زُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ قَالِ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتَوْقِي أُنْفِخُ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ٩٦].

وزبر الحديد أي: قطعه الكبيرة. وجاءت بمعنى: التقطع والتفرق.

قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٢﴾﴾، أي: تفرقوا إلى فرق وأحزاب شتى. وجاءت بمعنى: الكتب والمواعظ والزواجر التي نزلت على الأنبياء<sup>(٢)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٥﴾﴾.

فالبيّنات هي: الحجج والمعجزات، والزبر هي: المواعظ والزواجر، والكتاب المنير: اسم جنس «يشمل جميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه لهداية الناس وإرشادهم»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: المحيط في اللغة، ابن عباد الطالقاني ٤٥/٩، المصباح المنير، الفيومي ١/١٣١،

القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٥٠٩/١.

(٢) قال الطبري في تفسيره ٢٣١/١٤: «والزبر:

هي الكتب، وهي جمع زبور، من زبرت الكتاب إذا كتبه، عن مجاهد: الزبر: الكتب».

(٣) قال الخازن: «وسمي الكتاب الذي فيه

في أم الكتاب»<sup>(١)</sup>.

وفي عدة مواضع تحدث القرآن عن الزبور: الكتاب الذي أنزله الله تعالى على داود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْتِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِذْ هَبَسَ وَإِسْتَعْجَلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

أوحى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم كما أوحى لمن قبله من الأنبياء، والزبور وحي من الله تعالى ومنة على نبيه داود عليه السلام، والذي يؤمن بالزبور يلزمه الإيمان بالقرآن لأن مصدرهما واحد، فحرياً بأهل الكتاب الذين يؤمنون بالزبور أن يؤمنوا بالقرآن ختام الكتب وآخر الرسالات، والذي جاء مصدقاً بما قبله.

وقال سبحانه: ﴿وَرَبِّكَ أَتَعْلَمُ يَمُنُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ الَّذِينَ عَلَى بَعْضٍ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

فقد فضل الله داود عليه السلام بهذا الكتاب العظيم، وفي تكرار هذه العبارة في سورتين تقريراً لها، وتذكيراً بها، وبياناً لفضل داود عليه السلام، ودليل على التفاضل بين الأنبياء، وبرهاناً على وحي الله لأنبيائه،

(١) جامع البيان ٢٢/١٦٤.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِي هَيْدٍ وَمَعْنَى وَأَنَّ الْقُرْآنَ يَتْلُوَنَّ مِنْ شَدِيدِ الْعَذَابِ﴾ [الأنعام: ١١٣] ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِي هَيْدٍ وَمَعْنَى وَأَنَّ الْقُرْآنَ يَتْلُوَنَّ مِنْ شَدِيدِ الْعَذَابِ﴾ [الأنعام: ١١٤] ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِي هَيْدٍ وَمَعْنَى وَأَنَّ الْقُرْآنَ يَتْلُوَنَّ مِنْ شَدِيدِ الْعَذَابِ﴾ [الأنعام: ١١٥] ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِي هَيْدٍ وَمَعْنَى وَأَنَّ الْقُرْآنَ يَتْلُوَنَّ مِنْ شَدِيدِ الْعَذَابِ﴾ [الأنعام: ١١٦] ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِي هَيْدٍ وَمَعْنَى وَأَنَّ الْقُرْآنَ يَتْلُوَنَّ مِنْ شَدِيدِ الْعَذَابِ﴾ [الأنعام: ١١٧]. [الشعراء: ١٩٢-١٩٧].

والزبور: الكتب لأنها زبرت أي: رقت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِي هَيْدٍ وَمَعْنَى وَأَنَّ الْقُرْآنَ يَتْلُوَنَّ مِنْ شَدِيدِ الْعَذَابِ﴾ [الأنعام: ١١٣] أي: في كتب المتقدمين من الأنبياء، لأنها بشرت به، أو لأنه تضمن ما ورد فيها، وجاء مصدقاً بها.

وجاء الزبور: بمعنى اللوح المحفوظ أو كتاب الأعمال: قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣].

قال الطبري: «يعني في الكتب التي كتبتها الحفظة عليهم وقد يحتمل أن يكون مراداً به

الحكمة زبوراً، لأنه يزبر عن الباطل، ويدعو إلى الحق، والكتاب المنير: أي الواضح المضيء، وإنما عطف الكتاب المنير على الزبور لشرفه وفضله». [باب التأويل، الخازن ٣٢٨/١].

وقال أبو حيان: «قيل: والكتاب هو الزبور، وجمع بين اللفظين على سبيل التأكيد، أو لاختلاف معنيهما، مع أن المراد واحد، ولكن اختلف معنيهما من حيث الصفة، وقيل: الكتاب هنا جنس للتوراة والإنجيل وغيرهما، ويحتمل أن يراد بقوله: والزبور: الزواجر من غير أن يراد به الكتب، أي: جاؤوا بالمعجزات الواضحة والتخويفات والكتب النيرة». [البحر المحيط، أبو حيان ٤٥٩/٣].

وهنا يكشف لنا المولى جل وعلا قسبا مما جاء في الزبور، حيث اشتمل على هذه البشارة العظيمة بالتمكين لعباد الله الصالحين، الذين يرثون الأرض وينشرون الرحمة في أرجائها.

والذكر: هو اللوح المحفوظ، وفيه أقدار الله وسننه، أو التوراة وفيها بشارات عديدة لأمة الإسلام، وفي التنويه على وجود هذه البشارة في اللوح أو في التوراة تقرير لها وتفخيم لشأنها، والمتأمل في ما يدعى عند أهل الكتاب بمزامير داود يدرك هذه المعجزة القرآنية! وقد جاء في المزمور السابع والثلاثين من المزامير المنسوبة لداود عليه السلام ما نصه: «والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض، ١٠ بعد قليل لا يكون الشرير، تطلع في مكانه فلا يكون، ١١ أما الودعاء فيرثون الأرض، ويتلذذون في كثرة السلامة.

وتعقيب هذه البشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلَاءًا لِّقَوْمٍ عٰكِبِينَ﴾. لفظة بليغة كي نقف خاشعين أمام إعجاز قرآني وبلاغ رباني.

ثالثاً: الإنجيل:

تحدث القرآن عن الإنجيل بما كشف لنا عن نزوله ومقاصده وفضائله، وما ورد فيه من أحكام وبشارات، فالإنجيل كلام الله

والزبور الموجود بين يدي أهل الكتاب المسمى عندهم بمزمور داود يشهد للنبي محمد صلى الله عليه وسلم وأمه، وهذا رد على أهل الكتاب الذين ينكرون نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، ببيان أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، كما تفضل الله على النبيين من قبل عامة وعلى نبيه داود عليه السلام خاصة.

مقاصد الزبور:

أنزل الله الزبور على داود عليه السلام كما أنزل سائر الكتب على الأنبياء هداية وتذكرة وبيانا وبشارة، وحجة على الخلق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِزْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

ويفهم من سياق هذه الآية أيضاً أن نزول الزبور نعمة وفضيلة لنبي الله داود عليه السلام.

والبشارة في الزبور كما أخبر القرآن.

قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٥) **إِنَّ فِي هَذَا بَلَاءًا لِّقَوْمٍ عٰكِبِينَ** (١٦) **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِينَ** (١٧) [الأنبياء: ١٠٥-١٠٧].

تعالى الذي نزله على نبيه عيسى عليه السلام هداية وتذكرة لبني إسرائيل وامتدادا للتوراة وتصديقا بها ونسخا لبعض ما ورد فيها.

وأما تعريفه: فالإنجيل: علمٌ على الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام<sup>(١)</sup>.

أوصافه ونزوله وفضائله ومقاصده: وصفه الله تعالى بأنه هدى ونورٌ، هدى للناس، ونورٌ يضيء لهم الدروب، وبين تعالى أنه مصدقٌ لما بين يديه من التوراة، فنزوله دليلٌ على صدقها، وامتدادٌ لها، ونسخٌ لبعض ما ورد فيها من أحكام، كذا كل نبي وكل كتاب يصدق بما قبله.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَإَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وهذه الآية تصرح بأن الإنجيل وحي من الله تعالى أكرم به عيسى عليه السلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

فالإنجيل من أشرف الكتب التي أنزلها الله تعالى بدليل حديث القرآن عنه في مواضع كثيرة، واقتران ذكره بأوصاف جليلة ومقاصد عظيمة، فهو هدايةٌ ونورٌ، وموعظةٌ وذكرى، وقد ورد ذكره في اثني عشر موضعا من كتاب الله تعالى، وفي هذا أعظم دليل على مزيته، سيما إذا قارنا ذلك بعدد ورود

(١) جاء في كتب المعاجم: الإنجيل لفظة مشتقة من نجلت الشيء إذا أخرجته، ومنه قيل لنسل الرجل: نجله كأنه هو استخرجه. وقيل للماء الذي يظهر من النز: نجل. يقال: قد استنجل الوادي، وإنجيل: إفعيل من ذلك كأن الحق كان قد دثر ودرس كثيرٌ من معالمه وكثر تحريف أهل الكتاب وخفي على الناس ما أحدثوه فأظهر الله جل وعز ذلك. مقاييس اللغة ٥/٣٩٦، مختار الصحاح ص ٣٠٥.

والذي أراه أنها معربة لا اشتقاق لها.

وفي المعجم الوسيط ١/٢٩: الإنجيل: كتاب الله المنزل على عيسى عليه السلام، وهي كلمة يونانية معناها البشارة. والموجود لدى النصارى الآن الأناجيل الأربعة وعدد من الرسائل والرؤى يطلق على مجموعها العهد الجديد، كما في نسخة الإنجيل.

انظر: كتاب الحياة.

انظر: كتاب الحياة.

الإنجيل في الأناجيل الأربعة، حيث لم ترد كلمة الإنجيل إلا في سبعة مواضع: مرة في إنجيل متى، والباقي في إنجيل مرقس، بينما لم ترد في إنجيل يوحنا، ولا لوقا، ومع ذلك لم يقترن ذكره بالحديث عن مصدره أو فضائله أو مقاصد نزوله، أو الدعوة إلى تحكيمه، أو انتظامه في سلك ما سبقه من كتب.

والإنجيل نعمة عظيمة أنعم الله تعالى به على عيسى عليه السلام ومن آمن به قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ نِّعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

فالإنجيل نعمة ومنحة جلييلة من الله تعالى، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وفي ذكر الإنجيل خاصة في هذا السياق؛ تنويهً بشرفه وتذكيرٌ بعظمته، وبيان كونه حلقة في سلسلة الكتب التي أنزلها الله على رسله لهداية الإنسانية. نزل الإنجيل هدايةً للحائرين ونورًا للسائرين.

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

فالإنجيل هدى ونورٌ، ومصدقٌ لما بين يديه من التوراة، وموعظةٌ للمتقين، وتكرار وصفه بالهدى، لتقرير هذا المعنى، وبيان كونه هدايةً عامةً لبني إسرائيل، هداية بيانٍ وإرشادٍ، فوق أنه هدايةٌ خاصةٌ لمن انتفع به من المتقين، كذلك قال أولاً: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: اشتمل على الهداية والنور، ثم وصفه ثانيةً، بأنه كله هدى ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم وحدهم هم الذين يتفهمون بهديه ويعتبرون بمواعظه. قال الرازي: معنى: «أن الإنجيل هدى أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه، وبراعة الله تعالى عن الصاحبة والولد والمثل والضد، وعلى النبوة وعلى المعاد، فهذا هو المراد بكونه هدى، وأما كونه نورًا: فالمراد به كونه بيانًا للأحكام الشرعية ولتفاصيل التكليف، وأما كونه مصدقًا لما بين يديه: فيمكن حمله على كونه مبشرًا بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم، وبمقدمه، وأما كونه هدى مرةً أخرى: فلأن اشتماله على البشارة بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم سببٌ لاهتداء الناس إلى نبوته»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير: «أي: هدى إلى الحق ونورٌ يستضاء به في إزالة الشبهات، وحل

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/٣٦٩.

المشكلات» (١).

أَيْمًا ﴿١٣١﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

قال ابن كثير: «والمشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة» (٢).  
بشارته بخاتم الرسل وآخر الكتب: كما جاء الإنجيل مصدقا بالتوراة التي سبقته فقد جاء مبشرا بخاتم النبيين والمرسلين الذي سيأتي بعده.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فبينت الآية كيف جاءت التوراة وكذا الإنجيل بالبشارات الصريحة الجلية الدالة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ووجوب اتباعه. فلقد بشرت التوراة والإنجيل بهذا (٢) المصدر السابق.

اشتماله على جملة من الأحكام:

قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَيَحْكُوْهُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ يَمَّا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ [المائدة: ٤٦ - ٤٧].

فقد أنزل الله الإنجيل مشتلا على جملة من الأحكام أوجها على أهل الإنجيل. تصديقه للتوراة ونسخه لبعض ما جاء فيها:

قال تعالى في قصة عيسى عليه السلام مع قومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حُدَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَحِجْرًا بَيْنَكُمْ وَمَنْ أَنقَضُوا اللَّهَ وَأُطِيعُوا﴾ ﴿٥٠﴾ [آل عمران: ٥٠].

فأمر أتباع عيسى بالعمل بالتوراة باستثناء ما نسخ منها، تخفيفا وتيسيرا عليهم، فكم حرم الله على اليهود من طيبات بظلمهم وعنادهم وتعنتهم وقسوة قلوبهم.

قال تعالى: ﴿فَيُظَاهِرُ مِنَّا الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ﴿٦١﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْبَهُمْ آمُولَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِّلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٣.

عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ [الفرقان: ١].

كما جاء القرآن ناسخا لما قبله من الكتب؛ فهو الحجة وهو المنهاج الذي يجب على البشرية أن تحتكم إليه، وتقتفي أثره، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وينزل القرآن انتهى العمل بما سبقه من كتب لأنها باتت منسوخة، قال تعالى بعد أن تحدث عن شريعة التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ قَاتِحَكُمْ يَتَّبِعُهُ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

وتكفل الله بحفظه وهياً الأسباب ويسر السبل المعينة على ذلك؛ فهو رسالة الله الخالدة، ونوره الذي لا ينطفئ، قال ابن الجزري رحمه الله: ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة، وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه لا في الكتب ولا يقرءونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب، ولما خص الله تعالى بحفظه من شاء من أهله أقام له أئمة ثقافت تجردوا لتصحيحه ويذلوا أنفسهم في إتقانه وتلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم حرفاً حرفاً، لم يهملوا منه حركة ولا سكوتاً ولا إثباتاً ولا

النبي الأمي، وبينت أوصافه وأحواله ومناقبه صلى الله عليه وسلم، وأنه جاء لهم بالرحمة واليسير، والخير والصلاح، ودعت إلى الإيمان به واتباعه، ومؤازرته ومناصرته، فذلك هو سبيل الفلاح.

رابعاً: القرآن:

حوى القرآن الكريم لب الكتب المنزلة، وأوعى معانيها، ونزل موثماً لها، متمماً لمقاصدها، وانفرد بأحكام ومعاني زيادة على ما ورد فيها مع كونه من جنسها؛ لأنه رسالة عامة ودعوة عالمية باقية إلى يوم الدين، ومن ثم فممن وجوه هيئته: استيعابه لما سبقه من الكتب بما يغني عنها، في حين أنها لا تغني عنه. وجاء القرآن الكريم ناسخاً لما سبقه من كتب انتهى العمل بما تبقى فيها من أحكام بنزل القرآن الذي ليس بعده كتاب، وقد اتفق القرآن مع الكتب التي نزلت قبله في الأصول.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ووقع الاختلاف في بعض الفروع، مراعاة لاختلاف الزمان والمكان، ومراعاة لعالمية دعوة القرآن وشمولها وقيامها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ

الكامل.

فالقُرآن آيةٌ بينةٌ وحجةٌ ساطعةٌ ومعجزةٌ خالدةٌ، تحدى الله به الناس كافةً، وهو معجزٌ في ألفاظه ومعانيه، وأساليبه وتراكيبه، معجزٌ في كل ما جاء فيه من حقائق بيناتٍ، معجزٌ في أوصافه وأخباره، معجزٌ في بشاراته ونبؤاته، معجزٌ في قصصه وأمثاله، معجزٌ في روعته وجلاله، معجزٌ في تأثيره العجيب ونظمه الفريد، معجزٌ في تشريعاته الحكيمة، معجزٌ في واقعيته ومثاليته، معجزٌ في أصالته وثباته، مع مواكبته لكل جيلٍ وقبيلٍ، وتناسبه لكل عصرٍ ومصيرٍ، معجزٌ في شتى جوانبه، فهو المعجزة الكبرى والآية المتجددة، والرسالة الخالدة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبيٍّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) (٢).

تحدى الله به الإنس والجن، أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، فما استطاعوا لذلك سبيلاً:

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، رقم ٤٦٩٦، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، ١/٩٢، رقم ١٥٢.

حذفاً، ولا دخل عليهم في شيءٍ منه شكٌ ولا وهمٌ» (١).

فحفظ الله تعالى كتابه من التحريف والتبديل فسلم من التناقض والاضطراب الذي اعترى التوراة والإنجيل بسبب تحريفهما. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَةَ إِنَّ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُبٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١) ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

فالقُرآن الكريم لا يتطرق إليه شكٌ ولا يقع فيه اختلافٌ ولا يتسرب إليه باطلٌ، ولا يضرب بعضه بعضاً، ولا يتفاوت في بلاغته، فهو كتابٌ محكمٌ ومحفوظٌ بحفظ الله تعالى له.

ولقد جاء الأسلوب القرآني متميزاً عن الكتب السابقة؛ إذ مع كونه خرج كما خرجت من مشكاةٍ واحدةٍ، ونزل به الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام وكذا على عيسى عليه السلام إلا أنه ينفرد عن تلك الكتب بمزايا تتناسب مع مقاصده؛ فهو الرسالة الخاتمة، والشرعة التامة، والمنهاج

(١) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/٦.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الْآلِئِ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

وقال جل وعلا: ﴿قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣ - ٣٤].

فتحدي الله به الإنس والجان، على أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، أو بحديث مثله فما استطاعوا لذلك سبيلا، مع أن منهم من حاول ذلك فخاب سعيه، وأدرك عجزه عن مجابهة هذا التحدي، وما أكثر ما في القرآن من تحديات.

خامسًا: صحف إبراهيم وموسى:

ورد الحديث عن الصحف التي أنزلها الله تعالى على إبراهيم وموسى عليهما السلام في سورة النجم.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَلْبَسْنَا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَمْ نَزِرْ وَازِرَةً وَذُرَّ لُحْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَصْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنْهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ نَفْثَةٍ إِذَا تَمَنَّىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشَاءُ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأَوَّلَىٰ ﴿٥٠﴾ وَنَمُودًا فَأَبَقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ كَانُوا هَمًا مَظْلَمًا وَأَطْفَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُرْثَفَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّيْنَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم: ٣٦ - ٥٦].

وفي سورة الأعلى: قال سبحانه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤَْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأَوَّلَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٩].

كذلك جاءت إشارة إلى الصحف الأولى بعمومها في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّنَا أَوْلَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأَوَّلَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه: ١٣٣].

عن مجاهد: قوله: ﴿أَوْلَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأَوَّلَىٰ﴾، قال: التوراة والإنجيل<sup>(١)</sup>. وعن قتادة، قوله: ﴿مَا فِي الصُّحُفِ الْأَوَّلَىٰ﴾ الكتب التي خلت من الأمم<sup>(٢)</sup>.

وخص صحف إبراهيم لأنه أبو الأنبياء

(١) انظر: تفسير مجاهد ص ٤٦٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٤٠٦/١٨.

وسيعرض عمله، ويجازى عليه جزاء عادلا، وأن مصير الإنسان ومتهاه لربه، وهو تعالى المدبر لهذا الكون، فلا فرح ولا حزن، ولا موت ولا حياة، إلا بأمره تعالى ومشيتته، فهو الخالق المدبر، وهو المبدئ المعيد، المغني المقني، المنظم لأمر الكون، المنتقم من الجبابرة الطغاة، والكفرة العتاة. أما آيات سورة الأعلى ففيها دعوة لتزكية الأنفس، ومداومة الذكر، وإقام الصلاة، ونهي عن إيثار الحياة الدنيا والاعتزاز بزخارفها الفانية، وترغيب في الآخرة فهي خير وأبقى. فالآيات تتحدث عن الأصول العامة والقواعد الكلية: الخالق، الكون، الحياة، الإنسان، المنهج، المبدأ، المعاش، الزاد، المعاد. من هنا ندرك أن رسالات الله وكتبه نزلت لهداية الإنسان وإصلاحه، وتوجيهه للخير في عاجله وآجله.

ونخلص من ذلك إلى أن محور هذه الكتب المنزلة: هو الإنسان، هدايته وإصلاحه ورسالته وعلاقته بهذا الكون، والتصور الصحيح لحقيقة الدنيا والآخرة، كما جاءت الكتب الإلهية لإقامة موازين العدل في ربوع الكون، وبيان خطر المسؤولية والجزاء. وقد وصفها الله تعالى بأنها من الصحف الأولى، والنذر الأولى: وهذا يعني كونها مكتوبة، وأنها جاءت بالأخبار والمواعظ، أما وصفها بالأولى

عليهم السلام، والعرب في الجاهلية كانوا يقرون بفضله ومكانته، وكذلك أهل الكتاب يقرون بنبوته وإمامته وأبوته للمؤمنين، فالكل يدعي اتباع أثره. كذلك لتقدمها وقدمها؛ وللمقدم أهميته وللعتيق مزيته، وخص صحف موسى لأنه من أولي العزم من الرسل، ولأن المشركين يعرفونه، وأهل الكتاب يدعون اتباعه والعمل بما جاء به، وصحف موسى هي: التوراة، وهي من الصحف الأولى باعتبار تقدمها على ما بعدها من الكتب، فقد نزل بعدها الزبور والإنجيل والقرآن.

وقال الثعلبي: بينة ما في الصحف الكتب الأولى: أي بيان ما فيها يعني القرآن أقوى دلالة وأوضح آية. وقال بعض أهل المعاني: يعني ألم يأتيهم بيان ما في الكتب الأولى التوراة والإنجيل وغيرهما من أنباء الأمم التي أهلكتناهم لما سألوا الآيات، فأتتهم فكفروا بها، كيف عجلنا لهم العذاب والهلاك بكفرهم بها<sup>(١)</sup>.

والآيات تكشف لنا عن بعض ما ورد في تلك الصحف: ففي سورة النجم: بيان للعدل الذي قامت عليه السموات والأرض، أنه لا يتحمل أحدٌ وزر أحدٍ، وكل إنسانٍ مؤاخذاً بسعيه، لا يتحمل وزر غيره، ولا ينال حق غيره، وسوف يرى ما قدم من خيرٍ أو شرٍ،

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٦٧.

ولا زالت منها بقية باقية في أيدي أهل الكتاب، بينما اندرست صحف إبراهيم، فاستحقت صحف موسى التقديم.

قال الزركشي: «قدم ذكر صحف موسى لوجهين، أحدهما: أنه في سياق الاحتجاج عليهم بالترك، وكانت صحف موسى منتشرة أكثر انتشارا من صحف إبراهيم، وثانيهما: مراعاة رؤوس الآي»<sup>(١)</sup>.

فإنه يفصح عن قيمتها ويبين عن أسبقيتها وقدمها؛ فللسابق مزيتها، والشيء العتيق له قدره ونفاسته. و اختلف المفسرون في مرجع الإشارة ﴿إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [الأعلى: ١٨].

فمنهم من قال: الإشارة لكل ما ورد في السورة من معانٍ وحكم وأحكام ونذر، ومنهم من قال: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۖ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝١٥﴾ تَوٰىرُونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ ۚ وَأَبْقَى ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٧].

وأرى أن القول الأخير هو الأولي بالقبول لأنه هو القريب، والأصل في الإشارة أن تكون للقريب.

وقدمت صحف موسى مرة، وقدمت صحف إبراهيم أخرى: لمراعاة الأسبقية في الأفضلية، والأسبقية الزمانية، فإن للتوراة مكانتها العظيمة، وقد ورد الحديث عنها كثيرا في القرآن، هذا فضلا عما في التقديم والتأخير من تفنن في البيان، واستيعاب للمعاني، مع مراعاة الفاصلة في كلا الموضوعين. وفي سورة الأعلى: لما أشار إلى الصحف جملة، وأنها الأولى: ناسب ذلك ترتيبها حسب زمانها، فبدأ بصحف إبراهيم، وثنى بصحف موسى.

أما في سورة النجم: فلقد بدأ بصحف موسى لأنها أشمل وأوسع وأقرب عهدا،

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٢٣٩.

الإنجيل؛ لأن التوراة هي الأصل، والإنجيل جاء متمماً لها، أو المراد بالكتاب ما سبق من كتب، وإنما أفردتها مع كثرتها باعتبار أنها كتابٌ واحدٌ، وخرجت جميعها من مشكاة واحدة، ونزلت كلها لغاية واحدة هي توحيد الله تعالى وعبادته، وإقامة موازين القسط.

وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِنْزِيلًا وَاسْتَمِعِلْ وَأَسْمَعْ وَتَقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

فأمر الله بالإيمان الكامل والتصديق التام بكل ما أنزل على أنبيائه، دون تفريق بين نبي ونبى، وأن نعلن التسليم المطلق له تعالى. والإيمان بكل ما أنزل من صفات المتقين كما جاء في مطلع سورة البقرة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَاخِرَةَ هُمْ رُفُوقُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة: ٤].

وفي ختام السورة دعوة للإيمان بسائر الكتب.

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥].

## الكتب المنزلة والموقف منها

بين القرآن الكريم ما يتوجب على الأمم نحو الكتب التي أنزلها على أنبيائهم، وهو الإيمان بها وتصديقها والعمل بما جاء فيها والتماس الهدايات منها، وواجبنا نحن أمة الإسلام أن نؤمن بالكتب السابقة كما حدثنا عنها ربنا، ونعظمها ونقدسها فضلاً عن إيماننا بالقرآن الكريم آخر الكتب وأعظمها.

أولاً: الإيمان بها جميعاً:

دعا الله تعالى في كتابه الكريم إلى الإيمان بما سبقه من كتب أنزلها على أنبيائه إجمالاً فيما أجمل، وتفصيلاً فيما فصل.

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

والكتاب الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم هو القرآن الكريم خاتم الكتب، نزل على خاتم النبيين، والكتاب الذي أنزل من قبل: المراد به التوراة باعتبارها آخر ما نزل قبل القرآن، وإنما لم يذكر

فنحن مكلفون بالإيمان بالكتب جملةً، ولا يتم إيمان العبد ولا يستقيم منهجه حتى يؤمن بالكتب المنزلة كلها، هذا هو منهج الإسلام الواضح، ودعوته الصادقة وطريقه المستقيم.

وقد بينت الآية الكريمة مع سياقها أن الإيمان بالكتب السابقة ركنٌ من أركان الإيمان، وأن الواجب على الأمة أن تعلن ذلك، وأن تقف ذلك الموقف في مقابل إنكار وتشكيك أعداء القرآن، وأن تعلن إيمانها بجميع الكتب المنزلة ولا يضرها كفر الكافرين، ولا يجوز مقابلة جحود أهل الكتاب للقرآن بجحود التوراة والإنجيل، بل الإيمان بالكتب المنزلة كلها ركنٌ من أركان الإيمان لا يتم بدونه، وهو إيمانٌ ثابتٌ لا يتبدل.

والتعبير بـ (من) الدالة على الاستغراق وتنكير الكتاب؛ لبيان وجوب الإيمان بكل كتاب أنزله تعالى، جملةً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل. قال أبو السعود رحمه الله: «بيانٌ لاتفاق الكتب في الأصول، وتأليفٌ لقلوب أهل الكتابين، وتعريضٌ بهم»<sup>(٣)</sup>. فقد كفروا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وكان لا يسعهم إلا الإيمان به.

قال الشيخ الحكمي في معارج القبول: «والركن الثالث: الإيمان «بكتبه المنزلة»

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٧.

فالإيمان بسائر الكتب المنزلة واجبٌ على كل مؤمن لا يستقيم إيمانه ولا يتم إلا به. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَبٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣].

أي: فلا تكن في مرية من نزول التوراة عليه وتلقيه لها، أو من لقائه يوم القيامة حيث يجمع الله الرسل عليهم السلام، فما أجمله من لقاء<sup>(١)</sup>.

ومعنى الإيمان بالكتب: الإيمان بها على إطلاقها وأنها منزلةٌ من عند الله على أنبيائه ورسله، والإيمان بما ورد فيها من هدى ونور، وموعظة وذكرى، وتفصيل وبيان، وفي حديث جبريل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (فأخبرني عن الإيمان. قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره). قال صدقت)<sup>(٢)</sup>.

فالمؤمن مطالبٌ بأن يعلن عن موقفه من الكتب المنزلة، ويبين عن إيمانه بها، وهذه هي دعوة الإسلام، فالإيمان بالكتب المنزلة من الأركان الثابتة، والمبادئ الراسخة التي فرضها الإسلام، فكل كتابٍ أنزله الله تعالى، أخبرنا عنه القرآن، أو لم يرد خبره

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٣٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، ١/ ٣٦، رقم ٨.

قال ابن كثير: «ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، أي متبعاً لها غير مخالفٍ لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون»<sup>(٣)</sup>.

كما جاء القرآن الكريم مصدقاً للتوراة والإنجيل وما سبقهما.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾  
[المائدة: ٤٨].

كذلك كل نبي أخذ الله عليه العهد والميثاق أن يؤمن بكل من يليه من الأنبياء إن عاصره.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾<sup>(٤)</sup> [آل عمران: ٨١].

قال الطبري: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين بما ذكر، فقال لهم تعالى ذكره: أقررتم بالميثاق الذي واثقتموني عليه: من أنكم مهما أتاكم رسولٌ من عندي مصدق لما معكم «لتؤمنن به ولتنصرنه» «وأخذتم على ذلك إصري»؟ يقول: وأخذتم على ما واثقتموني عليه من الإيمان بالرسول التي أتيتكم بتصديق ما معكم من عندي والقيام

على رسله، ومعنى الإيمان بالكتب التصديق الجازم بأن كلها منزلٌ من عند الله عز وجل على رسله إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين، وأنها كلام الله عز وجل لا كلام غيره، وأن الله تعالى تكلم بها حقيقة كما شاء وعلى الوجه الذي أراد»<sup>(١)</sup>.

فالإيمان بالكتب السابقة ركن من أركان الإيمان ثابتٌ لا يتبدل ولا يتغير، يجب الإيمان بها إجمالاً فيما أجمل، وتفصيلاً فيما فصل، ومن مقتضيات تمام الإيمان بها معرفة مقاصدها وأسمائها وأوصافها.

ثانياً: تصديق الكتاب المتأخر لما نزل قبله:

كتب الله تعالى يصدق بعضها بعضاً، فكل رسالة تأتي مصدقة لما قبلها، فالكتب الإلهية يصدق بعضها بعضاً. «ومعنى التصديق كونه موافقاً في التوحيد والنبوات وأصول الشرائع»<sup>(٢)</sup>.

وقد جاء الإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٥)</sup>  
[المائدة: ٤٦-٤٧].

(١) معارج القبول ٢/ ٦٧٢ باختصار.

(٢) البحر المحیط، أبو حيان ٣/ ٢٤٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٢٦.

الظاهر أنه علةٌ لإنزال الميزان فقط، ويجوز أن يكون علةٌ لإنزال الكتاب والميزان معاً، لأن القسط هو العدل في جميع الأشياء من سائر التكاليف، فإنه لا جور في شيءٍ منها»<sup>(٢)</sup>.

وقال الشوكاني: «ومعنى ليقوم الناس بالقسط ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة»<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فكان لا بد من شريعة يحتكم الناس إليها، شريعة لها قدسيته وجلالها في النفوس، شريعة يجتمع حولها الناس ويرتضونها ولا سبيل لذلك إلا بالمنهج الرباني الذي يسع الجميع ويلزم الجميع ويدعن له الجميع، إذ القوانين البشرية لا قداسة لها ولا كرامة في النفوس، فضلاً عن قصورها عن تحقيق العدالة والتوازن بين الحقوق.

فدعا الله تعالى كل أمة من الأمم للاحتكام بالكتاب الذي نزل على نبيهم أو لشريعة من سبقه من الأنبياء.

قال تعالى عن تحكيم التوراة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا

بنصرتهم «إصري». يعني عهدي ووصيتي، وقبلتم في ذلك مني ورضيتموه». «قالوا أقررنا»، فإنه يعني به: قال النبيون الذين أخذ الله ميثاقهم بما ذكر في هذه الآية: أقررنا بما ألزمتنا من الإيمان برسلك الذين ترسلهم مصدقين لما معنا من كتبك، وبنصرتهم. قال الله: ﴿فَأَشْهَدُوا﴾، أيها النبيون، بما أخذت به ميثاقكم من الإيمان بتصديق رسلي التي تأتيكم بتصديق ما معكم من الكتاب والحكمة، ونصرتهم على أنفسكم وعلى أتباعكم من الأمم إذ أنتم أخذتم ميثاقهم على ذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم بذلك<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: وجوب تحاكم النبي وأُمَّته إلى الكتاب المنزل:

ما أرسل الله نبياً إلا وجعل له شريعة يدعو إليها ويأمر بها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فما من رسول أرسله الله تعالى إلا وأرسله بالحجج النيرة والدلائل الواضحة والشريعة الغراء التي تقيم موازين العدالة بين الناس وترعى جميع الحقوق المشروعة.

قال أبو حيان: «ليقوم الناس بالقسط:

(٢) البحر المحيط ١٠/١١٣.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/٢١٢.

(١) جامع البيان ٦/٥٦١.



وَمَا يَتَّبِعُهُ الْخَلْقُ صَيًّا ﴿١٢﴾ [مريم: ١٢].

وبين الله تعالى شيئاً مما تضمنته التوراة، في جانب الأحكام الشرعية العادلة التي نزلت لحماية الإنسان وحفظ دينه، وروحه، وعقله، وبدنه، وماله، وعرضه. قال تعالى:

﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

[المائدة: ٣٢].

أي: لجرم وشناعة قتل النفس البريئة والاعتداء على حقها في الوجود، أوجب الله على تعالى على بني إسرائيل في كتبه وعلى لسان رسله وألزمهم، أن من قتل من لا يستحق القتل لأنه لم يقتل أو يفسد في الأرض، فكأنما بجرمه هذا قتل الناس جميعاً، ومن ساهم في إنقاذ نفسٍ فكأنما أحيا الإنسانية جميعاً، ولقد أرسل الله رسله في بني إسرائيل بالحجج الباهرة والشرائع القويمة، لكن الكثير منهم بقي على فسقه وإسرافه في الأرض بإهدار الدماء وهتك الأعراض واستحلال الأموال.

وكتب الله تعالى نزلت لتحكم وتسود حياة الناس وتقضي بينهم، فهي العدل الذي فرضه الله، وفي تعطيلها الظلم الشنيع،

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَّمْ يَجِدْكُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ [المائدة: ٤٤-٤٥].

وقد شدد الله عليهم في الأمر بتحكيما بعد أن وقع منهم التساهل والتفريط وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُمْ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٤٦﴾ [الأعراف:

[١٧١].

فأمرهم الله تعالى بأن يأخذوا أحكام التوراة بجدٍ وعزمٍ وأن يتركوا ما كانوا عليه من تقاعسٍ وتهاونٍ، فكتب الله تعالى لن يقوى على العمل بها أصحاب النفوس الضعيفة والهمم المتدنية، وهذه الآية العظيمة داعيةً إلى تعظيم التوراة والقيام بحقها، ودليلٌ على قساوة قلوب اليهود حتى يؤاخذوا بهذه الطريقة.

قال مجاهد: وسبب رفع الجبل عليهم أنهم أبوا أن يقبلوا فرائض التوراة لما فيها من المشقة، فوعظهم موسى فلم يقبلوا، فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم: إن أخذتموه بجد واجتهاد وإلا ألقى عليكم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: فأخذوه بقوة ثم

أيام معدودات، فكانت تلك الفرية وغيرها من الفرى التي أقحموها في دينهم ودسوها في عقيدتهم من دواعي غرورهم وظنهم السيئ بربهم.

وحين بعث عيسى عليه السلام دعا الله تعالى أهل الكتاب إلى الاحتكام إلى الإنجيل مع التوراة التي نسخ بعض أحكامها.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٦ - ٤٧].

قال الشوكاني: «قوله: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾: هذا أمرٌ لأهل الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل الله فيه، وذلك قبل البعثة المحمدية، وأما بعدها فقد أمروا في غير موضع بأن يعملوا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الناسخ لكل الكتب المنزلة»<sup>(٢)</sup>.

وقوله ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾: حجة على النصارى الذين يعرضون عن القرآن؛ فإذا

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣١٧/٢. يعني بقوله: «فإنه قبل البعثة المحمدية حق» أن العمل به قائم وإن حرف قبل بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم، لكن بقي منه بقايا من الحق.

نكثوا بعد<sup>(١)</sup>.

ونعى القرآن عليهم كيف يدعون إلى الاحتكام لشريعة الحق ثم يعرضون عنها.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى الْكِتَابِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرُوقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣].

فكان الإعراض عن القرآن نتيجة لإعراضهم عن كتبهم التي يزعمون أنهم مؤمنون بها متمسكون بما فيها، وكان الحري بهم وقد أوتوا حظًا من العلم بكلام الله إذا دعوا إلى القرآن الذي خرج من المشكاة التي خرج منها التوراة والإنجيل أن يبادروا إلى الاستجابة له، وقبول أحكامه. وجاء الاستفهام ليحمل معنى التعجب والإنكار، والتعريب «ثم» فيه معنى الاستبعاد، كيف يدعون إلى الحق فيعرضون عنه؟ وهذا التولي مصاحبٌ لموقفهم الثابت من هذا الكتاب وهو الإعراض التام الذي لا مبرر له سوى التمرد والجحود، والمفاهيم الخاطئة عن الآخرة.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمَسَّكَ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَنَعْمَ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٤].

ذلك التولي والإعراض بسبب زعمهم أنهم إن دخلوا النار فلن يمضوا فيها سوى

(١) النكت والعيون، الماوردى ٢٧٦/٢.

الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفِينَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَآيَاتِنَا الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ [المائدة: ٤٥ - ٤٦].

يدل عليه، وحذف القول كثير كقوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٣٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣].

أي: يقولون سلاماً عليكم.  
والثاني: أن يكون قوله: (وليحكم) ابتداءً أمرٍ للنصارى بالحكم في الإنجيل.  
والمقصود: أن يحكموا بما أنزل الله فيه مما لا يزال باقياً لم يحرف، ومعيار ذلك موافقته للحق الذي جاء به القرآن. وقد لفت نظري تكرار كلمة الإنجيل كأنها تشير إلى أكثر من إنجيل، فالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام هو الإنجيل الحق.  
وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَقَفِينَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَآيَاتِنَا الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

بينما أشارت الآية الثانية إلى الإنجيل الموجود في أيدي النصارى، وهذا يجب أن يطبق منه ما دلت القرائن على أنه من بقايا

كان تحكيمهم للإنجيل لأنه مما أنزل الله؛ فالقرآن كذلك مما أنزل الله ! فلماذا يتكرون له ويعادونه !

وقوله: ﴿أهل الإنجيل﴾ دليل على أنه مؤقتٌ بمرحلة معينة، وموجهٌ لطائفةٍ محددة، هم بنو إسرائيل خاصة، ومن هنا فإنه لم يؤمن بالتوراة من لم يؤمن بالإنجيل، ولم يؤمن بموسى من لم يؤمن بعيسى عليهما السلام.

قرأ حمزة: (وَلِيَحْكُمَ) بكسر اللام، وفتح الميم، والمعنى: آتيناه الإنجيل ليحكم، فالإنجيل مع ما لم ينسخ من التوراة شرعةٌ ومنهاجٌ للنصارى، وقرأ الباقون بسكون اللام والميم على سبيل الأمر: (وَلِيُحْكَمْ) (١).  
وفيه وجهان:

الأول: أن يكون التقدير: وقلنا ليحكم أهل الإنجيل، فيكون هذا إخباراً عما فرض عليهم في ذلك الوقت من الحكم بما تضمنته الإنجيل، ثم حذف القول لأن ما قبله من قوله: ﴿وَكُنِينَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

(١) قرأ حمزة بكسر اللام، ونصب الميم، وقرأ الباقون بإسكان اللام والميم.  
انظر: النشر في القراءات العشر ٢/٢٥٤، تحبير التيسير في القراءات العشر ١/٣٤٧.

الحكم بما في الإنجيل يقود ويفضي إلى الحكم بالقرآن لأن حقائق الإنجيل تقرر ما في القرآن.

أما القرآن الكريم فقد جاء بالشرعة الغراء الكاملة التي فرض الله عزوجل الإيمان بها والعمل بأحكامها.

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاذٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْنَاكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَسَبَلُوكُمْ فِي مَاءِ اتِّكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَبِئْسَتُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأِنْ أَحْكَم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثُرُوا مِنْ النَّاسِ لَفَسِخُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ یَعْبُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ یُوَفِّقُونَ ﴿٥٠﴾ ] [المائدة ٤٨ - ٥٠].

فأنزل الله آخر كتبه على خاتم رسله صلى الله عليه وسلم؛ امتدادا لما سبقه من الكتب وتصديقا بها؛ فنزوله دليل على صدقها، وهو مهيم عليها: أمين وراقب، وحكم وشاهد، ومبين لما خفي منها، وموضح لما أشكل فيها، وحافظ يقوم ما اعتراها من اعوجاج، وينفي ما لابسها من أباطيل وخرافات،

الإنجيل الحق الذي أنزله الله بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ ولم يقل مثلا: وليحكم أهل الإنجيل به، فدل هذا على اشتغال الإنجيل على قدر مرجعه للوحي والباقي من وضع البشر.

قال ابن حزم: «وأما قوله تعالى: ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ فحق على ظاهره لأن الله تعالى أنزل فيه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واتباع دينه، ولا يكونون أبدا حاكمين بما أنزل الله تعالى فيه إلا باتباعهم دين محمد صلى الله عليه وسلم وإنما أمرهم الله تعالى بالحكم بما أنزل في الإنجيل الذي يتمون إليه فهم أهله، ولم يأمرهم قط تعالى بما يسمى إنجيلا وليس بإنجيل، ولا أنزله الله تعالى كما هو قط، والآية موافقة لقولنا، وليس فيها أن الإنجيل لم يبدل لا بنص ولا بدليل، إنما فيها إلزام النصارى الذين يتسمون بأهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه، وهم على خلاف ذلك»<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا فالآية حجة على النصارى، وفيها تعجيز لهم، فلا برهان لهم، ولا دليل، إلا في القرآن الذي حدثنا عن مضمون ومقصود الإنجيل الحقيقي، أو ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ ما لم ينسخ بالقرآن فيبطل العمل به، ومما ريب فيه أن

(١) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم ١/١٥٩.

الصدود والإعراض والانفلات عن شريعة الله تعالى والتحايل عليها والخروج عنها، ثم أنكر الله على من هجر شريعته ورضي بأهواء وأحكام الجاهلية مع ما تحمله من جهل وسفه وتناقض وتخبط وظلم وقسوة، وحمية ورجعية، مع ذلك تجد من ينادي بها ويطالب بتطبيقها.

وأنكر تعالى على من يعتقد خلاف ذلك، ويقرر تعالى أن حكمه تعالى هو المقدم، فلا يضاهيه ولا يضارعه حكم، ولا يمثل لشريعة الله إلا أهل اليقين، الذين وقر الإيمان في قلوبهم ونور بصائرهم وهيم نفوسهم لقبول شرع الله والرضا بحكم الله.

### رابعاً: اشتمال الكتب المنزلة جميعاً على وجوب الإيمان بخاتم النبيين:

ما بعث الله من نبي ولا أنزل من كتاب إلا وبشر فيه بخاتم النبيين، وجلى أوصافه للمؤمنين، فبشر به كل كتاب وأخبر عنه كل نبي، وقد أخذ الله الميثاق على جميع أنبيائه بالإيمان بهذا النبي وموازرته إن أظلم زمانه، ودعوة أتباعهم إلى ذلك.

قال جل وعلا: ﴿وَأَكْتَبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا لِأَيْتِكَ قَائِلٌ عَدَائِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشْأَتِي وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ

مستوعب لما جاء في أصولها، وتمام لها، هو المرجع الذي يحتكم إليه عند التنازع في شأنها، وأمر تعالى بتحكيم كتابه والعمل به، وتعظيمه، ونهى عن اتباع ما عليه أهل الضلال من أهواء، وقد جعل الله لكل أمة شرعة تحتكم إليها ومنهاجاً تسير عليه بما يحقق مصالحها ويلبي حوائجها، ولو شاء الله لجمع البشرية على منهج واحد وشرعة واحدة.

ولكن اختلاف الناس وتباين مشاربهم وتوجهاتهم سنة الله ومشيتته ثم يأمر الله تعالى بتحكيم شرعه ففيه الخير والصلاح والرحمة بالإنسانية، وفيه البركة والسعد لكل من أذعن له ورضي به، وينهى عن اتباع ما عليه أهل الضلال من أهواءٍ يحتكمون إليها مع ما فيها من تعسفٍ وظلم، ويحذر من كيد أعداء الدين وتحايلهم لصرف أهل الإسلام عن شريعتهم ومنهاجهم، والتلبس عليهم وتعطيل الأحكام؛ لنشر الظلم وإشاعة الفوضى في المجتمعات.

وإذا كان الاستجابة لبعض دعواتهم والانقياد لهم والسقوط في شركهم بتعطيل بعض ما أنزل الله فتنةً يجب الحذر منها، فإن أعرضوا وانصرفوا عن شرعة الله ومنهاجه الذي ارتضاه لعباده وجعل فيه صلاحهم، فاعلم أن الله تعالى يريد عقوبتهم وحرمانهم، وقد جبلت نفوس كثيرة على

بَيِّنُونَ الرُّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧٧﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

فلم يقتصر الحديث في التوراة والإنجيل على أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم، بل ورد الحديث كذلك عن أوصاف أصحابه ومناقبهم، كما أشارت الآية الكريمة، أن الله تعالى ضرب لنبية صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم أروع الأمثلة في التوراة والإنجيل، حيث بدأت دعوة الإسلام غريبة، ولم تلبث أن قوي عودها وانتشر عبيرها وأورقت شجرتها وأينعت ثمارها. ولا تزال الكتب السابقة تحفل بالبيانات التي بقيت شاهدة وهادية لطريق إمام المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ [الصف: ٦].

فلقد جاء عيسى عليه السلام مصدقا بالتوراة ومبشرا بخاتم الأنبياء.

فلقد جاءت أوصاف نبينا صلى الله عليه وسلم مكتوبة في التوراة والإنجيل وعلى إثرها وفي ضوءها آمن من آمن من علماء أهل الكتاب، وكان اليهود والنصارى يترقبون مجيء هذا النبي الأمي الذي يبعث بالرحمة ويرفع الله به الحرج ويضع عنهم الأصار التي أرهقتهم، ويحط الأغلال التي أثقلتهم، وكانوا يتواصون ويتعاهدون على نصرته ومؤازرته، فلما بعث آمن منهم من تجرد للحق وأخلص له، وأعرض من خاب وخسر.

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيمٌ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَفَازَهُ فَاسْتَقَلَّ عَلَى سُوقِهِمْ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا



فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه، فمجيئه هو نفس صدق خبرهم، فكان مجيئه تصديقاً لهم؛ إذ هو تأويل ما أخبروا به، ولا تنافي بين هذا وبين القول الآخر: إن تصديقه المرسلين شهادته بصدقهم، وإيمانه بهم، فإنه صدقهم بقوله ومجيئه، فشهد بصدقهم بنفس مجيئه، وشهد بصدقهم بقوله، ومثل هذا قول المسيح: ﴿يَنْبَغِي إِسْرَاءُ بِلِإِي رَسُولِ اللَّهِ إِنَّكُمْ مُصَدِّقَاتٌ لِمَا بِيَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمِثْرًا رَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أُمَّةٌ أَحَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

فإن التوراة لما بشرت به ونبوته كان نفس ظهوره تصديقاً لها، ثم بشر برسول يأتي من بعده، فكان ظهور الرسول المبشر به تصديقاً له، كما كان ظهوره تصديقاً للتوراة، فعادة الله في رسله أن السابق يبشر باللاحق، واللاحق يصدق السابق، فلو لم يظهر محمد بن عبد الله ولم يبعث لبطلت نبوة الأنبياء قبله، والله سبحانه لا يخلف وعده، ولا يكذب خبره» (٢).

ودعا الله تعالى أهل الكتاب للإيمان بالقرآن الذي جاء مصدقاً لما معهم.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَمْثَلَهُمْ فَسَبَّ السَّبْتِ ۗ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا

أخبروا به عن الله عز وجل، ثم في الآية وجهان: الأول: أنه تعالى دل بذلك على صحة القرآن، لأنه لو كان من عند غير الله لم يكن موافقاً لسائر الكتب، لأنه كان أمياً لم يختلط بأحد من العلماء، ولا تتلمذ لأحد، ولا قرأ على أحد شيئاً، والمفتري إذا كان هكذا امتنع أن يسلم عن الكذب والتحريف، فلما لم يكن كذلك ثبت أنه إنما عرف هذه القصص بوحي الله تعالى. الثاني: قال أبو مسلم: المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبياً قط إلا بالدعاء إلى توحيده، والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به، والأمر بالعدل والإحسان، وبالشرائع التي هي صلاح كل زمان، فالقرآن مصدق لتلك الكتب في كل ذلك» (١).

فتصديق القرآن بما سبقه من كتب دليل على صدقه وصدقها، وبيان انتظامه في سلكها، وخروجه من المشكاة التي خرجت منها؛ وكتب الله تعالى يصدق بعضها بعضاً. قال ابن القيم في هداية الحيارى: «لو لم يظهر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور نبوته تصديق لنبواتهم، وشهادة لها بالصدق، فأرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصف: ٣٧].

(٢) هداية الحيارى، ابن القيم ٣/ ٢٩٧.

(١) المصدر السابق ١/ ٥٢٢.

﴿٤٧﴾ [النساء: ٤٧].

ومعنى كونه مصدقا لما معهم: أي بما في كتبهم من بشارات واضحة تدل على بعثته وتقرر نبوته صلى الله عليه وسلم.

قال ابن جرير: «ويعني بقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾: أن القرآن مصدق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة، فأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم جل ثناؤه أن في تصديقهم بالقرآن تصديقاً منهم للتوراة؛ لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه واتباعه نظير الذي من ذلك في الإنجيل والتوراة، ففي تصديقهم بما أنزل على محمد تصديق منهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير رحمه الله: «فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات»<sup>(٢)</sup>.

وقال جل وعلا داعيا بني إسرائيل للإيمان بخاتم النبيين الذي جاء مصدقا بما معهم: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ وَلَا تَسْتَوُوا بِآبَائِي ثُمَّ قَلِيلًا وَرَائِي فَأَتَقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

وهذه الآية دعوة للإيمان بالقرآن العظيم وبنبوة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم

التي دلت عليها كتبهم فهي تصديق لما جاء في كتبهم من بشارات، بدليل إسلام عديداً من الأحرار والرهبان وغيرهم، حينما طابقوا ما جاء في كتبهم بما شاهدوه وعينوه من أوصاف وأحوال نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام<sup>(٣)</sup>، وغيره.

احتج عليهم ونعى كيف لم يؤمنوا بهذا الكتاب مع مجيئه مصدقا لما معهم!

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فبين تعالى حال كثير من اليهود الذين جحدوا وكابروا، مع ظهور الحجج وجلاء البراهين، على صدق نبوة إمام المرسلين، فيما جاء به من عند رب العالمين، فسارعوا إلى الكفر، ومع طول انتظارهم لداعي الحق وترقيهم لمبعثه. ومع مجيء القرآن مصدقا لما بين أيديهم من البشارات والأخبار وتأكد كثير منهم من أوصاف هذا النبي الذي ينتظرونه، مع ذلك كله فقد كفروا به بغيا وحسداً وكبراً وعناداً، وطمعاً في أعراض دنيا فانية.

(٣) عبد الله بن سلام: قصة إسلامه الرائعة المشهورة في صحيح البخاري، كتاب مناقب الصحابة، باب مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه، رقم ٣٦٠١.

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٥٩٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٩٧.

عليه وسلم، وهو في أرضٍ يخترف، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني سألتك عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبيٌّ: فما أولُ أشراف الساعة؟ وما أولُ طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: (أخبرني بهن جبريل أنفًا) قال: جبريل؟ قال: (نعم)، قال: ذلك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِحَبْرَةٍ فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>.

وجاء القصص القرآني مصدقا بـقصص التوراة والإنجيل وشاهدا على أنبياء الله قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup> [يوسف: ١١١].

أي: تصديقًا لما جاء في الكتب السابقة حيث تتفق القصص في مسارها العام، وإن اختلفت في تفاصيلها، فالقرآن الكريم هو القصص الحق لأنه من عند الله تعالى، وقد حفظ من التبديل، بينما الكتب السابقة وقع عليها التحريف والتبديل، وإن احتفظت بحقائق وأخبار صادقة، فجاء القصص القرآني مصدقا برسالات الله، داعيا للتأسي بالأنبياء والإيمان بما أنزل عليهم، كما جاء

قال ابن عباس: كان يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلما التقوا هزمت يهود خيبر، فعادت اليهود بهذا الدعاء، وقالت: اللهم إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به، فأنزل الله ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾<sup>(١)</sup>.

كما نعى القرآن عليهم عداوتهم لأمين الوحي جبريل عليه السلام مع كون ما نزل به مصدقا لما معهم، قال جل وعلا: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِحَبْرَةٍ فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup> [البقرة: ٩٧].

فتصديق الكتب السابقة من مقاصد نزول القرآن الكريم، ومن صفاته اللازمة، فكيف يعادون جبريل عليه السلام وهو أمين الوحي، نزل بالكتاب الذي جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب!

عن أنس رضي الله عنه قال: (سمع عبد الله بن سلام، بقدم رسول الله صلى الله

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي ١٠/٣.

وأخرجه ابن إسحاق في سيرته ١٩٦/٢، والطبري في تفسيره ٤١٠/١، وابن أبي حاتم في تفسيره ١٧٢/١ ٩٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب من كان عدواً لجبريل، رقم ٤٤٨٠.

بل ونسخه العمل بها جملة؛ فالإنجيل على سبيل المثال جاء مصدقا للتوراة مقررا لأحكامها وإن نسخ بعضها.

وتصديقه لما سبقه من الكتب دليل على صدقه؛ إذ لو كان من عند غير الله لما وافق كلامه. وفي تصديقه رد على مطاعن المشركين وأهل الكتاب وزعمهم بأنه مفترى، ولو كان كما يدعون فأبي عبقرية! وأي براعة تلك التي جعلت محمدا يحاكي كلاما لم يدرسه ولم يعهده من قبل، وهو العربي الأمي! أي موافقة هذه؟ وأي توارد أفكار وإلهام ذلك! وأي عقل يمكنه تصديق تلك الفرية العجيبة، بل إن نزوله موافقا ومصدقا للكتب المنزلة لبرهان جلي على أنه كلام الله، أدرك ذلك وآمن به كل من سمعه أو قرأه ممن له معرفة بالوحي الإلهي.

**ثانياً: القرآن هو المهيمن على الكتب السابقة جميعاً:**

كما جاء القرآن مصدقا بما قبله من كتب فقد جاء مهيمنا عليها، حافظا ومؤتمنا، ومستوعبا ومبينا وحكما وإماما.

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً

مصدقا بما تبقى في كتبهم من حقائق، أما ما حرف فقد صدق القرآن بأصله الحقيقي، وأصل لنا المنهج القويم في معرفة الحقائق من الأباطيل وتمييز الأصل من الدخيل.

فكلام الله تعالى يصدق بعضه بعضاً، وكل كتاب نزل مصدقا لما قبله. وتصديقه بالكتب السابقة أنها نزلت من عند الله تعالى على الأنبياء عليهم السلام، وتصديقه بما ورد في هذه الكتب من بشاراتٍ عن مبعث النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم ونزول آخر الكتب، وبما ورد فيها من عقيدة وأحكام وآداب وقصص وأمثال.

فالقرآن جاء مقررا لما ورد في هذه الكتب من حقائق ثابتة. فحري بأهل الكتاب أن يؤمنوا بالقرآن الذي جاء مصدقا لما معهم، ولذا تقترن دعوتهم للإيمان بالقرآن ببيان كونه مصدقا لما معهم، فهذا أدعى لتصديقه، وتصديقه بأصل الكتب المنزلة أنها كلها من عند الله، أما الكتب المحرفة فقد جاء القرآن بتصديق ما تبقى فيها من حقائق لم تتبدل وأحكام لا تزال.

ولا يعني تصديقه لما سبقه من الكتب التطابق التام بينهما، بل للقرآن هيمنته على ما قبله، وله سماته التي تفرد بها، والتي تتفق مع مقاصد نزوله وتتفق مع كونه آخر الكتب. كما لا يتعارض تصديقه بها مع نسخه لبعض أحكامها، واستقلاله بأحكام لم ترد فيها،

عما خالطها من تحريفٍ وداخلها من زيفٍ، فيقوم ما اعترها من اعوجاج، وينفي ما لا بسها من أباطيل وخرافات<sup>(٤)</sup>.

قال ابن جرير: القرآن أمينٌ على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منه فهو حقٌّ، وما خالفه منها فهو باطل، عن ابن عباس رضي الله عنه: «ومهمناً» أي شهيداً: وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وقال العوفي عن ابن عباس: «ومهمناً» أي: حاكماً على ما قبله من الكتب، وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو: أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله<sup>(٥)</sup>.

والقرآن شاهدٌ عليها، وشاهدٌ على موقف أهل الكتاب منها، فالقرآن الكريم وعاءٌ للكتب السابقة، حيث حدثنا عن مقاصدها وصفاتها، وأخبرنا عما تضمنته من أحكام وآداب وقصص وأمثال ووعد ووعيد وأخبار ونبوءات ووصايا وبشارات، وهذا من حفظه لهذه الكتب وتوثيقه لها، قال ابن جريج: «القرآن أمينٌ على ما قبله من الكتب»<sup>(٦)</sup>.

وقال الزمخشري: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾

(٤) وقد أشار لهذا المعنى د. محمد عبد الله دراز في كتابه: الدين، ص ١٨٩.  
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٩٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٦.  
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٥.

وَحِدَّةٌ وَلَكِنْ يَلْبَسُكُمْ فِي مَا آتَيْنَكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فَعَلْتُمْ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٨].

والهيمنة تعني: المراقبة والشهادة والحفظ والتمكن من الشيء، جاء في لسان العرب: «المهيمن اسمٌ من أسماء الله تعالى، وفي التنزيل: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، قال بعضهم: معناه الشاهد، يعني وشاهدًا عليه، قال ابن عباس: المهيمن المؤمن، وقال الكسائي: المهيمن الشهيد، وقال غيره: هو الرقيب، يقال: هيمن يهيمن هيمنة إذا كان رقيباً على الشيء، وقيل: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: معناه وَقَبَانًا عَلَيْهِ، وقيل: وقائماً على الكتب»<sup>(١)</sup>.

وقال الزمخشري: «هيمن الطائر على فراخه: رفرغ عليها، وهيمن على كذا إذا كان رقيباً عليه حافظاً، والله عز سلطانه المهيمن»<sup>(٢)</sup>.

وقال الطبري: «وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلانٌ عليه، فهو يهيمن هيمنةً، وهو عليه مهيمنٌ»<sup>(٣)</sup>.

فالقرآن حافظٌ أمينٌ لها، حفظ لنا هذه الكتب فحدثنا عنها، وهو حافظٌ لها يكشف

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٤٣٦، والقبان الميزان.  
(٢) أساس البلاغة ٢/ ٥.  
(٣) جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٨٦.

الوحي على الأنبياء أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِثْلَ نَبِيِّ الَّذِي الْأَيُّ جَاءَ بِهِ مَوْسَى نُورًا وَهَدَىٰ لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرَأَيْسَ ثَبُوتَهَا وَتُحْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَلَّمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاءُكُمْ قُلِ اللَّهُ تَزَدَّوهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

وعندما ادعى اليهود أن لحم الإبل محرّم في دينهم وكتابهم أنزل الله تعالى قوله: ﴿كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَمَنْ أَفْزَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٣ - ٩٥].

وعندما سعوا لتعطيل حد الرجم في كتابهم والاحتيال على النبي صلى الله عليه وسلم وإخفاء ما ورد في كتابهم أنزل الله تعالى قوله: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّوْتٌ لِلْكَذِبِ سَمَّوْتٌ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفٍ الْكَلِمَةِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ

ورقياً على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات» (١).

كذلك جمع القرآن وحوى ما سبقه من الكتب، بل جاء متمماً لها، ناسخاً لبعض أحكامها؛ لذا فهو المرجع يحتكم إليه، عند التنازع في شأنها، والقرآن يغني عما سواه، ولا يغني ما سواه عنه.

قال ابن جرير: «جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمتها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلماذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾﴾ [الحجر: ٩]» (٢).

وقال السعدي: «مشمّتلا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية، فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه» (٣).

جاء القرآن الكريم ينفي عن التوراة انتحال المبطلين وإنكار الجاحدين، وتأويل الجاهلين، فعندما أنكر نفرٌ من اليهود نزول

(١) الكشاف، الزمخشري ٣٢/٢.  
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٤٩٠/٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٤٦/٥.  
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٤.

ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها الاستفادة من تلك الكتاب وانقضاء وقت العمل بها»<sup>(٢)</sup>.

❖ لأنه جاء مستقلاً، لم يحتج إلى بيان ما قبله، بينما لا غنى بما قبله عنه، قال ابن تيمية رحمه الله: «وأما القرآن فإنه مستقلٌ بنفسه لم يحوج أصحابه إلى كتابٍ آخر، بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن؛ وعلى زياداتٍ كثيرة لا توجد في الكتب؛ فلهذا كان مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيماً عليه، يقرر ما فيها من الحق، ويبطل ما حرف منها، وينسخ ما نسخه الله، فيقرر الدين الحق، وهو جمهور ما فيها ويبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها، والقليل الذي نسخ فيها؛ فإن المنسوخ قليلٌ جداً بالنسبة إلى المحكم المقرر، والأنبياء كلهم دينهم واحدٌ، وتصديق بعضهم مستلزمٌ تصديق سائرهم وطاعة بعضهم تستلزم طاعة سائرهم»<sup>(٣)</sup>.

❖ لأنه نقل إلينا متواتراً؛ بخلاف الكتب السابقة، فلقد انقطعت أسانيدُها واندرثت أصولها، قال ابن كثير: «أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كل كتابٍ قبله،

شَيْئاً أَوْلَيْتِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَفْعَلْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ [المائدة: ٤١].

قال ابن عطية: «المهيمن على الشيء هو المعنى بأمره، الشاهد على حقائقه، الحافظ لحاصله، ولأن يدخل فيه ما ليس منه والقرآن جعله الله مهيماً على الكتب يشهد بما فيها من الحقائق، وعلى ما نسبه المحرفون إليها، فيصح الحقائق ويبطل التحريف، وهذا هو شاهدٌ ومصدقٌ ومؤتمنٌ وأمينٌ»<sup>(١)</sup>.  
لماذا هيمنة القرآن؟

❖ لأنه آخر الكتب فكان مصدقاً لما قبله.  
❖ لأنه كتابٌ محكمٌ، العمل به قائمٌ ما دامت السموات والأرض، بينما نسخ ما قبله.  
❖ لأنه سلم من التبديل والتحريف؛ فالله تعالى تكفل بحفظه وبيانه.  
❖ لأنه حكمٌ على هذه الكتب وعلى أصحابها، يفصل بينهم ويحسم نزاعهم ويبين ما خفي عليهم.  
❖ لأنه جاء مستوعباً لهذه الكتب حكماً وشاهداً ورقياً عليها، قال أبو السعود: «ومهيماً عليه أي: رقيباً على سائر الكتب المحفوظة من التغيير لأنه يشهد لها بالصحة والثبات ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها،

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٥.

(٣) معارج الوصول، ابن تيمية ص ١٤.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٩٩ باختصار.

ثالثاً: القرآن مبين للحق الذي اختلف فيه أهل الكتاب أو كتموه:

جاء القرآن الكريم مبيناً كثيراً مما أخفاه أهل الكتاب من الكتاب من الحقائق والوقائع، وكشف عن كثير من الحوادث التي طمسوها أو تناسوها، أو اختلط فيها الحق بالباطل، كقصة البقرة، وقصة أصحاب السبت، وقصة إبراهيم، وقصة يوسف، وقصة موسى.

قال تعالى: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾

[المائدة: ١٥].

فبعد أن تحدث القرآن عن أحوال الطائفتين وأبان عن حقائق وأمور لا يمكن لنبي عربي أمي أن يعرفها، ولا سبيل لمعرفة إلا بوحي من الله تعالى، دعاهم إلى الإيمان بهذا النبي الذي جاء ليبين لهم كثيراً مما أخفوه من الحقائق التي وردت في التوراة والإنجيل والتي أخفاها بعض الأحرار والرهبان عن أتباعهم، ولا يزالون.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أخفوا آية الرجم من التوراة وبينها الرسول صلى الله عليه وسلم لهم، وهو لم يقرأ كتاباً ولم يتعلم علماً من أحد، وهذه معجزة، وأخفوا صفة

جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلماذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى حفظه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِعُونَ﴾ [الحجر: ٩] (١).

وقال الشيخ دراز رحمه الله في كتابه النبأ العظيم: «سراختصاص القرآن بالخلود وعدم التحريف دون الكتب السابقة: أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأييد، وأن هذا القرآن جيء به مصداقاً لما بين يديه من الكتب ومهيماً عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة، زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان ساداً مسدها، ولم يكن شيء منها ليسد مسده، ففضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم» (٢).

ولأنه أفضل الكتب وأعظمها أثراً وأعلاها رتبة، قال ابن تيمية: «ومعلوم أن المهيم على الشيء أعلى منه مرتبة» (٣).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣٨.

(٢) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص ٤٢.

(٣) رسالة جواب أهل العلم والإيمان أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ص ٢٠.

[المائدة: ١٩].

فلقد كان المؤمنون من أهل الكتاب يذوبون شوقاً وحنيناً لزمان بعثة هذا النبي الذي ينتظرونه، ولا شك أن نزوله بعد طموس الملل ودروس السبل، وفترة من الرسل أدعى إلى المبادرة للإيمان به، ومناصرته ومحبته، لا إلى مناصبته العداة وجحوده والتأمر عليه. وقد جاء القرآن بالبيان القاطع والبرهان الساطع؛ لئلا يكون لهم على الله حجة ولا يبقى لهم عذر. وبيان القرآن الكريم يحسم الاختلاف الذي وقع فيه أهل الكتب السابقة.

قال جل وعلا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْلَاهُمْ فَهُمْ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ٦٣-٦٤].

فلقد تسلط الشيطان عليهم بعد أن زين لهم سوء عملهم، مما أفضى بهم إلى الضلال وأوقع بينهم الخلاف، بعد أن لبس الباطل ثوب الحق، وارتدت الشياطين مسوح الرهبان؛ ليصدوا الناس عن الحق، من هنا كانت حاجة الإنسانية إلى الكتاب الراشد الذي يبين الحق، ويزيل الحيرة، ويفصل الآيات، ويحسم النزاعات، ويقطع الخلافات، ويبدد ظلام الشبهات، ويقم

محمد عليه الصلاة والسلام في الإنجيل، وغير ذلك، فلما أخبرهم بأسرار ما في كتابهم كان ذلك إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿وَيَقُولُوا عَن كَثِيرٍ﴾ مما لا تدعو الحاجة لبيانه، أو لأن فيما بينه الكفاية والغنية، وهذا من أدبه صلى الله عليه وسلم ومن شيمه الكريمة أنه يرغب ويشوق، فتقبل القلوب وتصغي الأذان إلى حديثه الطيب، وأنه يعرض ويتغاضى حتى لا تمل العقول وتنفر النفوس. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ فالنبي صلى الله عليه وسلم نور من الله تعالى؛ لأنه جاء بالهدى والحق، والقرآن نورٌ وكتاب مبينٌ لأنه أضاء للناس طريقهم، وأنار دروبهم، وأبان لهم ما خفي عليهم، وبدد ظلام الشك والحيرة، وأزال أسباب اللبس والإشكال.

فجاء القرآن بالبيان الجلي بعد فترة من انقطاع الرسل؛ لئلا يكون لأهل الكتاب عذر:

قال جل وعلا: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾﴾

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، ٣٥٩/٤، كتاب الحدود.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي.

والشرائع، فقد اختلفوا في التوحيد والنبوة والبعث باختلافهم في شأن الملائكة، وغير ذلك من أركان الإيمان، وإنما انبثق الاختلاف عن تعصبهم وركوبهم متن الهوى، وركونهم وحبهم لمباهج الدنيا، ونسيانهم وجحودهم، وعنادهم وغفلتهم، وجمودهم وقسوتهم.

فجاء القرآن قولاً فصلاً، وحكمًا عدلاً، وميزاناً قويمًا، ودعوةً لتوحيد الكلمة، ونبذ الخلاف، ومحو أسبابه، واجتثاث جذوره، وسد أبوابه، لجمع شتات القلوب، وتأليفها على كلمة سواء.

ومن أمثلة الاختلاف اختلافهم في شأن عيسى عليه السلام حتى تفرقوا وتحزبوا، فاليهود افتروا عليه وبهتوه وأمه، وغمطوه ومكروا به، والنصارى غالوا فيه وأطروه حتى عبدوه، مع اختلافهم الحاد في طبيعته، منهم من قال: إنه إله أو نصف إله، ومنهم من يزعم أنه ابن الإله، وبين ذلك وحوله أقوالٌ وأراءٌ لا تنحصر، كذلك اختلافهم في أمر البعث، هل يقع بالروح والجسد أم بالروح وحدها؟

واختلافهم في حكم الرجم، ومثل اختلافهم في حكم الطلاق وتعدد الزوجات، وغير ذلك من وجوه الاختلاف وصوره التي لا حصر لها، والتي مرجعها إلى تحريفهم ونسيانهم وتبديلهم وكتمانهم ولجاجهم

الحجة والبرهان، ويبين طريق الهداية، وينشر بشائر الرحمات بين أهل الإيمان. «نورٌ يكشف معالم الطريق إلى الحق والخير، ويقيم لمن يهتدي به فهمًا صحيحًا للعقيدة التي يعتقدها.. فالقرآن الكريم ميزان عدلٍ وحقٍّ، ويفصل ما بين الحق والباطل وحكم ما بين الخير والشر.. فما استقام على ميزانه، فهو الحق والخير، وما انحرف عنه، فهو الباطل والضلال.. فعلى هديه يجتمع أهل الكتاب على كلمةٍ سواءٍ منه، فيما اختلفوا فيه، وإليه يحتكم أهل الهدى، فيقضي بينهم بما يرفع الخصام والشقاق فيما كان سببًا في خصامهم وشقاقهم»<sup>(١)</sup>.

قال جل وعلا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ لَكُمْ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

فبعد ما مر في تلك السورة الكريمة من القصص الحق، قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وقصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ وقومها، وقصة صالح عليه السلام، وقصة لوط عليه السلام وبعدهما أورد الله في السورة من دلائل التوحيد وشواهد القدرة ومشاهد العظمة الربانية، بين تعالى كيف تفرد هذا الكتاب المبين بالقول الفصل الذي يحسم الخلاف، فكما اختلف بنو إسرائيل في أصول الدين

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١/ ٢٤٦.

ونكوصهم، وتمردهم وعصيانهم وركوبهم متن الهوى وارتيادهم سبل الغواية. قال الرازي: «بين الله تعالى أولاً كونه معجزة من وجوه، أحدها: أن الأفاضل المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والإنجيل، مع العلم بأنه عليه الصلاة والسلام كان أميناً وأنه لم يخالط أحداً من العلماء، ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم؛ فإذن لا يكون ذلك إلا من قبل الله تعالى. واختلفوا فقال بعضهم: أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا، وقال آخرون: أراد به ما حرفة بعضهم، وقال بعضهم: بل أراد به أخبار الأنبياء. والأول أقرب»<sup>(١)</sup>.

عاصره وتجرد للحق آمن به وصدقه وآزره، حيث قاده الإيمان بالبشارات والنبوءات للإيمان بالنبى الخاتم صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَاسْتَأْذِنُوا﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وفي الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)<sup>(٢)</sup>.

وقد صور لنا القرآن فرح مؤمني أهل الكتاب وشغفهم وابتهاجهم بالإسلام.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُنزِلَتْ أَنْ أُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا أُشْرَكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ [الرعد: ٣٦].

حيث يعبر القرآن عن تلك السعادة الغامرة، والفرحة العارمة، التي يعيشها من قاده الإيمان بالتوراة والإنجيل، إلى دين الحق، ونبى الإسلام، وكتاب الله الخالد،

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، رقم ١٥٣.

## رابعاً: وجوب الإيمان بالقرآن من أتباع الكتب السابقة جميعاً:

لا يسع أهل الكتاب إلا أن يؤمنوا برسالة خاتم النبيين وكتاب رب العالمين الذي ختم به، وإيمانهم بخاتم النبيين من مقتضيات إيمانهم بمن سبقه من الأنبياء وبما قبله من الكتب، وبما فيها من بشارات، فمن ثمرات إيمان أهل الكتاب بالتوراة والزبور والإنجيل إيمانهم بخاتم النبيين والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فمن عاش منهم قبل بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم كان على أمل وشوق لأن يستظل بزمانه فيؤمن به، ومن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/١٨٥.

به من المعاني والدلائل وكشف الشبهات ما لم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة، قيل: عنى بهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، فإنهم يفرحون بما أنزل من القرآن؛ لما يرون فيه من الشواهد على حقيقته التي لا يمتري فيه، ومن المعارف والمزايا الباهرة التي لا تحصى»<sup>(١)</sup>.

ويضرب الله المثل بموقف من آمن بأهل الكتاب فيقول تعالى: ﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلٌ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٥﴾ وَقَرَأَهُ أَنَا فَرَقْتَهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ۝١٦ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَنْهُمْ يَحْزَنُونَ لِأَلَدْقَانِ سَجْدًا ۝١٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٨ وَيَحْزَنُونَ لِأَلَدْقَانِ يَكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٩﴾ [الإسراء: ١٥-١٩].

فإيمان من آمن من أهل الكتاب بالقرآن حري أن يضرب به المثل، فإنه صادر عن علم صادق، ونابع من شوق دافق، فإذا بالجاه وقد سجدت عند سماع الحق، وإذا بالقلوب وقد أيقنت بوعد ربها على لسان رسله، وفي صفحات كتبه، وعده الذي تحقق ووعدته الذي توقن بأنه سيتحقق، وإذا بالعيون وقد ذرفت فرحًا واستبشارًا، وهيبة وإجلالا، مما يزيدهم خشوعًا على خشوعهم.

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٢٨٩/٦.

الذي أحيا الله به القلوب، وشرح به الصدور، سيما وقد وجدوا القرآن مصدقًا لما بين أيديهم، وأبصروا الرسول مطابقًا للبشارات، فنالوا مرادهم، وظفروا ببعيتهم، ورسد سفينة البحث على مرفأ اليقين، فأضحت الحياة في ظلال الإيمان أفرحًا متواصلًا، أنواعًا من مصابيح الهدى، وأنداء على أكاليل السكينة، ونفحات من أريج المحبة.

وإن كان هناك من حرم من هذه اللذة، وعزف عن هذا النعيم، حين تحزب للباطل، ووقف في صف الكفار، يقاسمهم العداوة، ويشاركهم التصدي للدين الحق، منكرين منه ما خالف أهواءهم، وبدد أوهامهم، ونقض أباطيلهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ﴾ إنكار لا برهان عليه، ولا مستند له إلا الركون للهوى وإيثار الباطل، لكن لا ينبغي أن يثني ذلك المؤمنين عن دعوتهم، ويصرفهم عن غايتهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِلُ﴾ فالؤمن لا يضره كثرة الهالكين، ولا يضره قلة السالكين، بل يحيا لغاية ويعيش لرسالة، هي تحقيق العبودية لله رب العالمين.

قال القاسمي: «﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ لأنه يحصل لهم

علم وبصيرة، وماضي إلى تحقيق الثمرات المرجوة والآمال العظيمة ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾، إيمان خالص ورجاء صادق، ﴿ فَأَتَيْنَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾: حقق الله رجاءهم وبلغهم مرادهم؛ فهو الكريم يثيب بالإحسان إحساناً، ويجزي بالإيمان نعيماً ورضواناً.

#### موضوعات ذات صلة:

إبراهيم عليه السلام، الإنجيل، التوراة، داود عليه السلام، عيسى عليه السلام، محمد عليه السلام، موسى عليه السلام

وفي صورة مشرقة ومشهد رائع إيمان القساوسة والرهبان بكتاب الله تعالى الذي بشرت به الكتب السابقة يقول تعالى: ﴿ تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَهُدَّ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَا ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِتِيَسِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَتَيْنَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٥].

فقد سطر القرآن تلك الصفحات المضيئة في حياة المؤمنين من النصاري، وصور تلك السعادة التي تغمرهم عندما تطرق مسامعهم كلمات الله التي أنزلها على خاتم رسله في ختام كتبه، تسري تلك الكلمات إلى قلوبهم، بعد أن تدوي في حناجرهم، فيفيض الدمع من محاجرهم، فرحاً وابتهاجاً، ورهبة وإجلالاً، فقد التقى القرآن مع ما سبقه من الكتب في سبيل الهدى وميدان الحق، فابتهجت القلوب ولهجت الألسنة: ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

إنه إيمان يقيني وشعور حقيقي قائم على